17 em Année No. 819

Lundi — 14 — 3 — 1949

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر المالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٨١٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٨ — ١٤ مارس سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

هل الشقاق طبع فى العرب ؟

جواب عن سؤال

للأستاذ أبى خلدون ساطع الحصري بك

وجهت هذا السؤال مفصلا إلى صديق الأستاذ الكبير ساطع الحصرى بك المستشار الفنى لجامعة الدول العربية . ولكن المقال لم يعجب الرقيب فلم يأذن بنشره . ولما اطلع عليه الأستاذ أبو خلدون أجاب عنه بهذا البحث الذى تقرأه . وإنى لأرجو بعد أن ينشر أن أعلق عليه بما يتفق مع رغبة الرقيب وواجب الحق وسياسة الرسالة . « الزيات »

صديق الأستاذ ...

لقد اطلعت على السؤال الذى وجهتموه إلى ، فى مقالكم المنون « هل الشقاق طبع فى العرب ؟ » .

فقد أشرتم فى المقال المذكور إلى حوادث الشقاق والتنافس والتخاصم التى توالت فى تاريخ العرب ؛ واستعرضتم الأحزاب السياسية والفرق الدينية التى ظهرت بينهم ؛ ثم ذكرتم رأى ابن خلدون فى هذا المضمار . وفى الآخر تساءلتم : « هل كتب الله على العرب أن يعيشوا أبداً بطبيعة البادية ونفسية الغابة وعقلية القبيلة ؟ »

فوجب على أن ألبى طلبكم ، فأكتب إليكم ما أعتقده فى هذه القضية الهامة . غير أنى رأيت من الضرورى أن أقف أولا أمام « المقدمات » التى صدرتم بها هذا السؤال ، قبل أن أحاول الإجابة عنه إجابة مباشرة .

فاسمحوا لى أن أسألكم بدورى : هل تظنون أن الاختلافات التى ذكرتموها كانت من خصائص الأمة العربية وحدها ؟

أنا لا أشك فى أن جوابكم عن هذا السؤال سيكون بالنفى ؛ لأنكم تعرفون جيداً — كما يعرف ذلك كل من يستعرض التاريخ العام — أن تواريخ الأمم الأخرى لم تخل من أمثال تلك الاختلافات .

فيترتب على ذلك إذن أن أنقل البحث إلى كمية هذه الاختلافات وشدتها ، فأسألكم : هل تعتقدون أن الاختلافات السياسية والدينية التى حدثت فى تاريخ العرب كانت أكثر وأشد وأعنف من التى تجلت فى تواريخ الأمم الأخرى ؟

أنا أعرف أن الآراء الشائعة الآن لا تدع مجالا للتفكير مليا فى هذا السؤال ؛ لأنها تحمل الأذهان على الرد عليه فوراً بالإيجاب .

وأعترف بأنى أنا أيضاً كنت — مدة من الزمن — من المتأثرين بهذه الآراء الشائعة ، ومن المسلمين بأن تاريخ العرب يشذ فى هذه القضايا عن تواريخ الأمم الأخرى شذوذاً كبيراً . غير أنى بدأت أشك فى صحة هذه الآراء الشائعة عند ما أخذت أتعمق فى دراسة التاريخ العام ؛ وازددت شكا فيها كلما تعمقت فى هذه الدراسة ؛ إلى أن أصبحت أعتقد اعتقاداً جازماً بأنها لا تتفق مع الحقائق التاريخية الثابتة أبداً ؛ لأنها لا تقوم على مقارنات شاملة ، بل تستند إلى استقراء ناقص جداً .

إننا ننفعل ، ونتألم ، ونغضب .. عندما نقرأ أخبار الاختلافات التى حدثت فى تاريخ العرب .. ولا سيما عند ما نتتبع نتائج هذه

الاختلافات ونطلع على كيفية تداول سلطة الخلافة ، وتشتتها بين سلطات السلاطين وملوك الطوائف العديدين .

إننا نتغفل ونتألم من هذه الأخبار والحوادث التاريخية ، لأننا نقيس أحوال القرون الماضية بمقاييس الأزمنة الحاضرة ... ولا نكلف أنفسنا عناء البحث في التاريخ العام بحثاً شاملاً ، لكي نعرف ما إذا كانت تلك الأحوال من الأمور التي تشذ فيها الأمة العربية عن سائر الأمم ، أو كانت من الأمور الطبيعية التي تتساوى فيها جميع الأمم في بعض الأطوار من تاريخها .

فيجب علينا ، قبل كل شيء ، أن نطلق أذهاننا من ربقة هذه الآراء الشائعة ، لندرس هذه القضايا من جديد ، بنظارات علمية بحتة ، مع استقراء الحوادث التاريخية استقراء تاماً .

فلنبدأ أولا بقضية الاختلافات الدينية . ولنستعرض ما حدث منها في أوربا ، طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة ... نجد أنها لم تكن قط أقل تنوعاً ولا أخف عنفاً مما حدث في العالم العربي خلال الأزمنة المذكورة ، إن لم تكن أكثر تنوعاً وأشد عنفاً منها ..

أحصوا المذاهب المختلفة التي نشأت في الغرب منذ ظهور المسيحية في مختلف البلاد الأوربية خلال القرون المذكورة ... استعرضوا الخلافات الدينية والمذهبية التي حدثت بين الدول وبين الكنائس من جهة ، وبين الكنائس المختلفة من جهة أخرى ... استقصوا أخبار الحروب الأهلية والدولية التي نجمت عن هذه الاختلافات الدينية في مختلف أقسام البلاد الأوربية ، حتى في فرنسا التي تظاهر الآن أكثر تباعداً عن الاهتمام بالأمور الدينية من جميع بلاد العالم ... قلبوا صحائف التاريخ التي سجلت أعمال محاكم التفتيش من جهة ، وحياة مؤسسي المذاهب الدينية من جهة أخرى ... فإنكم تضطرون إلى التسليم بأن الاختلافات الدينية التي حدثت في البلاد الأوربية كانت — بوجه عام — أوسع نطاقاً ، وأكثر تنوعاً ، وأشد عنفاً من التي حدثت في العالم العربي .

وأما الاختلافات السياسية ، فأمرها يحتاج إلى بحث أشمل ، وتفكير أعمق . .

فيجب علينا أن نلاحظ قبل كل شيء : أن العرب انتشروا — بعد الهجرة النبوية — بسرعة خارقة ، في بقاع واسعة جداً من القارات الثلاث المعلومة قديماً . ففتحوا خلال قرن واحد ، بلاداً أوسع بكثير مما فتحه الرومان خلال ثمانية قرون .

تصوروا الاتساع الهائل الذي وصلت إليه الدولة العربية في أوائل القرن الثاني للهجرة وأواسط القرن الثامن للميلاد .. تتبعوا حدود تلك الامبراطورية التي كانت تمتد من سواحل بحر المحيط الأطلسي إلى شواطئ نهر السند وسهول كشغر ، ومن سفوح هالايا إلى جبال البرنس والألب ، ومن سواحل بحر الهند إلى أواسط بحر قزوين وبحيرة آرال ، ومن باب المندب إلى جبال القافقاس ... وتذكروا في الوقت نفسه بساطة وسائط المناقلة والمواصلة ووسائل الحروب والسيطرة التي كانت معلومة ومستعملة في تلك العصور ... ثم قولوا لي : كيف كان يمكن أن تبقى تلك السلطنة المترامية الأطراف مصونة من مغبة الانقسام مدة طويلة من الزمن ، بالرغم من اختلاف الشعوب الكثيرة التي دخلت تحت حكمها ، وبالرغم من طول المسافات الهائلة التي كانت تفصل ثغورها من عاصمتها ، وضآلة الوسائط التي كانت تضمن اتصال هذه العاصمة بتلك الثغور

قولوا لي : أية سلطنة من السلطنات التي يذكرها التاريخ القديم والوسيط ، استطاعت أن تسيطر على مثل هذه البقاع المترامية الأطراف ، مدة أطول من التي سيطر عليها العرب ، دون أن تتعرض إلى الاختلافات والانقسامات ؟

لا تنس أن امبراطورية اسكندر الأكبر — في القرون الأولى — تجزأت بعد موت مؤسسها ، مع أنها كانت أصغر بكثير من الامبراطورية العربية . كما أن امبراطورية شارلمان — في القرون الوسطى — لم تسلم من الانقسام بعد موت عاهلها ، مع أنها كانت قليلة الاتساع جداً بالنسبة إلى اتساع الدولة العربية في أواخر عهد الأسرة الأموية ، أو أوائل عهد الأسرة العباسية .

ولا تنس أن انقسام السلطنات والامبراطوريات الكبيرة وانحلالها إلى إقطاعيات صغيرة كانت من الأمور الطبيعية المألوفة في جميع أنحاء العالم المعلوم في القرون الأولى والوسيطة .

ولذلك أعود وأسألكم مرة أخرى : كم أمة من الأمم التي عرفها التاريخ كانت أقل اختلافاً وأكثر اتحاداً من الأمة العربية من الوجهة السياسية ؟

اليونان ؟ ... ولكن التاريخ يشهد شهادة صريحة على أن هذه الأمة لم تتحد سياسياً في يوم من الأيام ... كانت كل مدينة من المدن اليونانية الكثيرة مملكة قائمة بذاتها ، دولة مستقلة

عن غيرها . وهذه الحالة كانت تبدو لليونانيين طبيعية وضرورية حتى أن كبار مفكريهم كانوا يحبذون هذه الحالة ، وكانوا يشاركون الرأى العام فى هذا المضمار . وقد قال أفلاطون : إن عدد المواطنين فى الدولة — أى الجمهورية — يجب ألا يزيد على خمسة آلاف . وقال أرسطو : إن الدول يجب أن تكون صغيرة ، حتى يستطيع جميع أفرادها أن يعرف بعضهم بعضاً معرفة مباشرة .

فى الواقع أن هذه المدن المستقلة — أى هذه الدويلات الصغيرة — كانت تتفق وتتحالف من حين إلى حين لدرء الخطر الخارجى الذى يحدق بالجميع . غير أن هذا التحالف كان لا يلبث أن ينفصم وينحل من جراء تنافس المدن الرئيسية على زعامة الحلف

ومن المعلوم أن أشهر وأهم هذه المحالفات تكونت عند هجوم الماديين على بلاد اليونان . غير أن هذه المحالفة أيضاً لم تعمر طويلا ، بل انحلت وزالت قبل أن يمضى على تكوينها عقدان من السنين !

وقد انقضى تاريخ اليونان السياسى بالمنافسات والمنازعات التى قامت بين أثينة وأسبارطة وكورنت . ومن المعلوم أن هذه المنافسات أدت إلى حدوث عدة حروب دامية بين مختلف المدن اليونانية كان أشهرها الحروب التى عرفت باسم حروب البلوبونيز

ولا ننس أن هذه الحروب التى اشترك فيها معظم المدن اليونانية هى التى أدت إلى تحطيم الأسطول الأسبارطى من جهة ، وإلى تدمير أسوار أثينة من جهة أخرى .

وقد حدثت هذه المنافسات والمحاربات بين تلك الدويلات ، مع أن مساحة البلوبونيز — مع شبه جزيرة آتيكا — كانت أقل من مساحة بعض المديريات فى مصر ، والمحافظات فى سورية ، والمتصرفيات فى العراق . ومع أن المسافة التى تفصل آتينة عن أسبارطة لا تختلف كثيراً عن المسافة التى تمتد بين القاهرة والأسكندرية ، وتقل كثيراً عن التى تفصل دمشق من بغداد ، وتتضاءل تماماً أمام المسافات الشاسعة التى تفصل بغداد عن قرطبة ولا سيما بلخ عن لشبونة .

إن هذه المئات من الدويلات اليونانية التى تقاسمت هذه الرقعة الصغيرة من الأرض ظلت متفرقة متنافسة متخاصمة ، ولم تجتمع تحت إدارة واحدة إلا عندما دخلت تحت حكم دولة أجنبية .

ترون ، أيها الأستاذ ، أن الأمة اليونانية لم تكن قط فى حالة تحسد عليها من هذه الوجهة .

وأما الرومان ، فلا شك فى أنهم امتازوا بين أمم التاريخ القديم بالاتحاد والانتظام . والامبراطورية التى أسسوها عاشت مدة أطول من مثيلاتها بوجه عام .

غير أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن هذا الامتياز نتج عن توافر عدة عوامل وأوضاع مساعدة لم تتيسر لغيرها أبداً .

أولا : أن السلطنة الرومانية تكونت بتدرج عظيم ، وهذا التدرج ساعد على رسوخ الأوضاع الجديدة واستقرارها مساعدة كبيرة .

ثانياً : أن الامبراطورية الرومانية شملت جميع سواحل البحر الأبيض المتوسط . ولا حاجة إلى القول بأن روما كانت فى نقطة مركزية من هذا البحر ، وقد ساعد ذلك كثيراً على اتصال العاصمة بمختلف أقسام السلطنة عن طريق البحر بسرعة وسهولة بالنسبة إلى وسائط النقل والمواصلة المعلومة فى تلك العصور القديمة .

ثالثاً : أن السلطنة الرومانية لم تتباعد عن السواحل كثيراً ، ولم تتغلغل فى الأقطار القارية أبداً . إنها لم تسيطر على جزيرة العرب ولا على ما بين النهرين ؛ فمعظم أقسام العراق ، وجميع بلاد إيران وخراسان ، وما وراء النهر والأفغان — ظلت خارجة عن حوزة السلطنة الرومانية ، وذلك قلل إلى حد كبير مشاكل الحكم التى تلازم السلطنات المترامية الأطراف .

إن اجتماع هذه الأسباب الأساسية هو الذى ساعد على إطالة عمر الامبراطورية الرومانية بالنسبة إلى ما كان معتاداً فى القرون الأولى والوسطى .

ومع كل هذا يجب ألا ننسى أن هؤلاء الرومان أيضاً لم يسلموا من آفات الاختلاف والتنافس : استعرضوا تاريخ روما بنظرة فاحصة ولاحظوا كم من المنازعات قامت بين مختلف الطبقات الاجتماعية ، حتى فى مدينة روما نفسها ، وحتى فى عهد الجمهورية ؟ وكم من الحروب الداخلية نشبت بين القواد فى عهد الامبراطورية ؟ وكيف أصبحت الجيوش ذات الكلمة النافذة فى تنصيب الأباطرة ؟ وكيف كانت الغلبة والكلمة العليا فى هذا الأمر تارة إلى الجيوش المرابطة فى أسبانيا ، وطوراً إلى الجيوش المرابطة فى سوريا ، وتارة إلى الجنود المرابطة فى أفريقيا ؟ وكيف أصبح الوصول إلى العرش رهن النجاح فى مؤامرات لا تعد ولا تحصى؟

وإذا لاحظتم كل ذلك اضطررتم إلى التسليم بأن الامبراطورية

الرومانية لم تمش سالمة من الاختلافات ، بل إنما عاشت بالرغم من الاختلافات ، وأما أخلاف الرومان القدماء ، فلا ننس أنهم عاشوا متفرقين متخالفين مدة لا تقل عن خمسة عشر قرناً .

وإذا تركنا السلطنات القديمة جانباً ، وانتقلنا إلى الدول المعاصرة لنا ، وتتبعنا أحوالها الماضية — طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة — وصلنا إلى نتائج مماثلة لما ذكرناه آنفاً .

ولنأخذ فرنسا مثلا ؛ فقد كان من المعلوم أنها أسبق الدول الأوربية إلى الوحدة السياسية الكاملة ، والتماسك القوى المتين ، ولكنا إذا استعرضنا أحوالها خلال القرون التي ذكرناها آنفاً وجدناها بعيدة عن الوحدة كل البعد ، ومسرحاً لشتى أنواع الخلافات والحروب .

أنا لا أود أن أطيل الحديث في هذا الموضوع ، ولذلك أكتفي بنقل كلمة كتبها مؤرخ فرنسا الشهير « أرنست لافيس » لتلخيص تلك الأحوال ، قال المؤرخ :

« لقد مضى عهد من التاريخ كانت فيه فرنسا شبيهة بمقدونيا الحالية منقسمة إلى أجزاء كثيرة ، متخالفة ، متنابذة ، متنافسة ، متخاصمة . وقد وجب أن تسيل الدماء مدراراً حتى تلتحم هذه الأقسام المختلفة ، فتصل فرنسا إلى وحدتها الحالية ... »

هذه كانت أحوال فرنسا التي سبقت جميع الدول الأوربية في طريق الاتحاد . وأما إذا أنعمنا النظر في تواريخ الدول الغربية الأخرى ، فنجد فيها أيضاً أحوالا مماثلة لذلك تجلت بمقياس أوسع وبشدة أعظم ، واستمرت مدة أطول .

لا بد من أن نتذكر — في هذا الصدد — أن ألمانيا كانت منقسمة إلى أكثر من ثلاثمائة دولة ودويلة حتى أوائل القرن الماضي ، وكانت لا تزال منقسمة إلى تسع وثلاثين دولة قبل ثمانين عاماً فقط !

إن اتحاد هذه الدول لم يتم إلا بعد جهود كبيرة وتضحيات عظيمة ، وهذه الجهود قد اجتازت مرات عديدة أطوار فشل أليمة

ولهذا كله أستطيع أن أقول بكل تأكيد : إننا كلما توسعنا وتعمقنا في دراسة تاريخ الدول الأوربية ازددنا يقيناً بأن معالم الاختلاف والانقسام فيها لم تكن قط أقل من التي تجلت في تاريخ العرب بوجه عام .

إني أقول هذا بكل تأكيد ، مع علمي بأني أخالف بذلك آراء الكثرة الساحقة من الكتاب والباحثين .

وقد فكرت ملياً في الأسباب والعوامل التي حملت الرأي العام على التباعد عن طريق الصواب في هذه القضية الهامة ، وأعتقد أنني وصلت إلى معرفتها بكل وضوح :

إن مراكز رؤيتنا لتاريخ العرب تختلف — بوجه عام — عن مراكز رؤيتنا لتواريخ الأمم الأخرى .

فنحن ننظر إلى تواريخ الأمم الأخرى عن بعد نظرة إجمالية فندرك خطوطها الأساسية العامة دون أن نتيه في تفاصيلها الفرعية . ولكننا ننظر إلى تاريخ العرب من قرب نظرة تفصيلية فنطلع على كثير من تفاصيله دون أن نحيط علماً بخطوطه الأساسية .

وأستطيع أن أقول : إن موقفنا تجاه التاريخ العام موقف رجل يتفرج على الجبل من السهل البعيد .

وأما موقفنا تجاه تاريخ العرب ، فهو موقف رجل يسير في قلب الجبل ويتغلغل في وهاده .

ومن المعلوم أن الجبال تتألف عادة من وهاد ووديان ، ومن مرتفعات ومنخفضات ، وهضاب ومنحدرات ، فلا تبدو عالية شامخة ، إلا لمن ينظر إليها من بعيد ، ويدرك شكلها العام دون أن يتيه بين خطوطها الفرعية المعقدة ...

إن تواريخ الدول الأوربية تبدو لنا جبالا مرتفعة شامخة ، لأننا ننظر إليها بنظر المؤلفين الأوربيين ، ومن الخارج ومن البعد ، فلنغير موقفنا منها ونظراتنا إليها ، وذلك بالتغلغل فيها ، نرى عندئذ أنها مؤلفة من وهاد ووديان بالرغم من منظرها الخارجي العام .

وأما تواريخ الدول العربية ، فتبدو لنا مجموعة مرتفعات ومنخفضات مشوشة ومعقدة ، لأننا ننظر إليها بنظر الأخباريين القدماء ، ومن داخلها ؛ فلنغير موقفنا منها ، ولننظر إليها من بعد — نظرة تسمو على النزعات — فنرى عندئذ أنها أيضاً مرتفعة شامخة بالرغم مما فيها من وهاد ووديان .

يجب علينا أن نضع هذه الحقيقة نصب أعيننا على الدوام ، وأن نسعى لتوحيد نظراتنا إلى صحائف التاريخ القومي والتاريخ العام ، ولنعدل عن استعمال نظارات مكبرة للعيوب في الأولى ، ومصغرة للعيوب في الثانية ، كما اعتدنا ذلك إلى الآن .

وعندما نفعل ذلك نفهم حق الفهم أن الأحكام الشائعة بيننا على تاريخ العرب ، إنما هي وليدة نظارات خاطئة ، ومقارنات قاصرة ، ولهذا السبب كانت في حاجة شديدة إلى التصحيح والتقويم بوجه عام

(البقية في العدد القادم)

أبو خلدون ساطع الحصري

ضوء علمى
على مشكلة اللاجئين العرب

للأستاذ عمر حليق

فى سنة ١٩٤٦ شهد أمام لجنة التحقيق الانجلو – أمريكية أستاذ يهودى هو البرفسور فرانك نوتستين رئيس دائرة علم السكان (ديموغرافيا) فى جامعة برنستون الأمريكية الشهيرة عن مستقبل الكيان اليهودى فى فلسطين من الناحية العلمية الصرف وعلى ضوء مشاكل السكان . وكانت خلاصة تحقيقاته وتحليلاته المعززة بالأرقام والدراسات الإحصائية تفيد أن تزايد السكان العرب فى فلسطين هو أكبر خطر يهدد مطامع اليهود فيها وصرح نوتستين بما يلى بالحرف الواحد : (1)

« إن من الصعب جداً أن يتصور المرء الظروف التى يستطيع اليهود أن يصبحوا فيها أكثرية فى فلسطين . فإن العرب (ونسبة تزايد السكان بينهم بفلسطين أعلى نسبة فى العالم على الإطلاق) حائزون لجميع الإمكانيات الطبيعية والاجتماعية لأن يحتفظوا بهذه النسبة المرتفعة . ومهما يكن عدد اليهود المتدفقين على فلسطين كبيراً فإن مقدرة الزراعة والصناعة اليهودية على استيعابهم ستظل محدودة مقيدة بعوامل اقتصادية واجتماعية ، منها الرغبة فى الاحتفاظ بمستوى للمعيشة مرتفع ، ونزعة اليهود الأوربيين لتحديد نسلهم بولد أو اثنين ، وطبيعة الاشتراكية التى تجعل اليهودى فى فلسطين غير ميال إلى بناء كيان عائلى كبير . وهذا عكس ما ينزع إليه العربى

وحتى لو تسنى لليهود أن ينشئوا لهم دولة فإن من المستبعد أن يستطيعوا الاحتفاظ بالسيادة السياسية فى كل فلسطين أو فى جزء منها ، بسبب هذا التزايد الهائل بين السكان العرب . وحتى لو عززت اليهود دولة أو دول خارجية كبرى فإن هناك عوامل طبيعية واجتماعية ديمغرافية (بالإضافة إلى العوامل السياسية والاقتصادية) تجعل تزايد السكان بين العرب أكبر خطر حقيق يواجه مطامع اليهود فى فلسطين .

وعلى ضوء هذه الحقائق فإن أكبر الظن أن حماسة اليهود ونشاطهم والجهد والمال والتضحية الإجماعية التى بذلوها لبناء الدولة اليهودية ، وجعلها دولة حديثة مزدهرة ستذهب سدى . وسيجد اليهود أنفسهم بحكم هذه العوامل الديمغرافية عاجزين عن تحقيق التفوق العددى والسيطرة السياسية للاحتفاظ بالسيادة الفعلية فى فلسطين » اهـ .

هذه شهادة عالم يهودى مهما قلبتها وجدت فيها ، على ضوء علم السكان ، حقائق راهنة تلقى ضوءاً قوياً على مشكلة اللاجئين العرب يساعد على تفهم مصلحتهم ومصلحة الوطن الفلسطينى الذى يحبونه ويتطلعون إلى الاستقرار فى ربوعه إلى أن تهب عليهم وعلى إخوانهم فى الوطن العربى الأكبر رياح مواتية لإتمام الصراع الفاصل مع اليهودية العالمية فى أرض الميعاد .

وهذه اللفتة العلمية تلقى كذلك ضوءاً على هذا الجدل الذى يسود المحافل العربية الآن بصدد مسألة العرب الذين أقصاهم الإرهاب والإجرام اليهودى عن ديارهم ، وهى مسألة ستحتل مكان البروز من أعمال لجنة التوفيق التى بعثت بها هيئة الأمم إلى فلسطين والتى تتناقل الصحف الآن أنباء نشاطها .

فهناك رأيان بصدد مشكلة اللاجئين العرب : رأى يدعو إلى العودة واستعادة الأموال والممتلكات حتى ولو لم تسو المسألة الفلسطينية تسوية نهائية . والرأى الآخر يتناول مسألة العودة هذه من ناحية عملية ، فيقول إن طبيعة السلوك اليهودى فى منطقة نفوذه فى فلسطين لا تدعو مطلقاً إلى استئمانه على حياة نصف مليون من العرب .

والواقع أن عملية اليهود فى إجلاء السكان العرب بواسطة الإرهاب اليهودى عملية مستمدة من الحقائق البينة التى أكدتها شهادة نوتستين هذا وغيره من خبراء مشاكل السكان . والقيادة الصهيونية الدولية أمهر من أن لا تشعر بخطورة هذه الحقائق وأن لا تحتال للتغلب عليها بواسطة مذابح « دير ياسين » وحيفا وترشيحا وألف حادثة وحادثة من أعمال الإجرام اليهودى المنظم

(1) Frank W, Notestèn pand Ernest Jurkat Population Problems of Palestime .

ولو أخذنا تحليلات نوتستين هذا من ناحيتها العلمية لاستطاع الداعون إلى عودة اللاجئين العرب إلى منازلهم وديارهم وحقولهم ومرابعهم في فلسطين استنباط حجج قوية قد تكون قاسية تتطلب روحاً جبارة وأعصاباً حديدية وتنظيماً قوياً ووعياً سياسياً حساساً ، ولاستطاع هؤلاء الداعون إجابة مخالفيهم في الرأي على أساس « الأمر الواقع » كذلك .

فإن إقامة أقلية عربية كبيرة في منطقة احتلال اليهود ، له ذيول عملية بعيدة الخطورة والخطر على مستقبل الكيان اليهودي إذا تحققت لهذه الاقلية العربية حقوقها الثقافية التامة وضمانات سياسية واقتصادية . وتوفير هذه الشروط مستطاع عملياً وقانونياً ودولياً . وستكون هذه الأقلية العربية مكونة من ستمائة ألف شخص على الأقل وهو عدد السكان العرب بموجب خارطة الأمم المتحدة للتقسيم . ولن يستطيع اليهود حين يعود العرب إلى ديارهم جلب أكثر من ١٠٠ ألف إلى ١٥٠ ألف يهودي من الخارج خلال الأعوام الخمسة القادمة ، وذلك بسبب القدرة الاقتصادية اليهودية على الاستيعاب ، وهي مقدرة ستحددها تحديداً سيئاً إغلاق الأسواق العربية في وجه الإنتاج اليهودي ومنع الجوالي اليهودية في الشرق العربي من أن تعود إلى فتح المبادلة التجارية مع يهود فلسطين وتعزيز اقتصادياتهم كما فعلت في السنين السابقة عن طرق إيطاليا واليونان وغيرها . وسبب آخر هو طبيعة المجتمعات اليهودية في الخارج . فإن يهود أمريكا لن يتركوا بحبوحة الرخاء في العالم الجديد لاختيار تجربة الصهيونية الشيوعية في فلسطين ، وكذلك حال يهود غربي أوربا .

وقد تكاثرت مؤخراً الأنباء بأن النظم الشيوعية القائمة في شرق أوربا ، ونسبة أولى الأمر من اليهود فيها كبيرة ، قد بدأت تحول بين هجرة ما تبقى من اليهود في منطقة النفوذ الشيوعي لتحتفظ بسند لها أمام سخط الأكثرية من غير اليهود .

والقيادة الصهيونية تتطلع إلى أن تسد هذا العجز في سياسة تهويد فلسطين ومشكلة التمدد في برنامج الهجرة الطامة — تتطلع إلى جلب الـ ٨٠٠ ألف يهودي الذين يستوطنون مختلف أقطار الشرق العربي وشمالي أفريقيا . وهذه ناحية لا يبدو أن صناع السياسة في العالم العربي يعطونها ما تستحقه من مراقبة واهتمام

ولقد كان عدد العرب في فلسطين في مستهل النزوة اليهودية (١٩١٩) حوالي ٦٥٠ ألفاً فأصبحوا بعد مضي ٢٥ عاماً مليوناً ونصف المليون تقريباً ، وذلك بسبب هذه العوامل الديمغرافية الفريدة التي ذكرها الخبير نوتستاين وغيره من الباحثين في مشاكل السكان . فنستنتج من ذلك أن بقاء ٦٠٠ ألف عربي بين ظهراني ٩٠٠ ألف يهودي الآن سيقلب أوضاع هذه الأكثرية اليهودية رأساً على عقب في بضعة عشر عاما . وهذه طريقة عملية على غاية من الأهمية في تقرير مصير المطامع الصهيونية في فلسطين والشرق العربي .

كل ذلك بالإضافة إلى العواقب السياسية الخطيرة في العالم العربي إجمالا وهي التي تستلزمها رعاية مصالح السكان العرب في منطقة النفوذ اليهودي ، وما سيترتب على ذلك من استعداد نفساني وعسكري يضمن دوام اتجاهات العرب نحو القضية الفلسطينية كما ارتفعت شكاوى العرب المقيمين بين ظهراني اليهود في فلسطين .

وإذا كان الداعون لتفادي عودة اللاجئين العرب إلى ديارهم في المنطقة اليهودية يبنون دعوتهم على نظرة عملية واقعية فإن الداعين إلى العودة يبنون دعوتهم على أسس عملية واقعية صرفة مستمدة من طبيعة التزايد الهائل بين السكان العرب ، وطبيعة مستقبل الصراع بين اليهودية العالمية والوحدة العربية .

والرياح الدولية لا بد أن تهب موائية للسفينة العربية عاجلا أو آجلا . وإن الحرب الفلسطينية قد أخذت تتمخض عن نزعة عسكرية صادقة واتجاه عملي إلى الإصلاح في الجهاز الإداري والنظم السياسية والاقتصادية والوعي الاجتماعي .

هذه تحليلات ولفتات قد تفيد عند البت في مستقبل اللاجئين العرب . ومسألة البت أكبر من أن تعالج في بحوث عارضة وهي تتطلب دراسات شاملة لا يصلح أن تكون العاطفة أساسها الوحيد . فهذا الاتجاه العاطفي إذا تجرد من المعرفة الصائبة قد يولد عكس ما يتوخاه العاطفون ، ويسبب ارتجالا في السلوك على النحو الذي صبغ تاريخ القضية الفلسطينية بطابع النكبات المتلاحقة .

(نيويورك) عمر حليق

معهد الشؤون العربية الأمريكية

على رسلك يا صديقي

بيني وبين الشاعر الزين

للأستاذ محمد الأسمر

كتب صديق أديبنا الفاضل الأستاذ عباس خضر كلمة عنوانها « الأسمر يسطو على شعر الزين » ذكر فيها أنني سطوت على صديق الشاعر الكبير المغفور له الأستاذ أحمد الزين فسرقت أبياتاً ، أدخلتها في قصيدتي التي رثيت بها المغفور له محمود فهمي النقراشي باشا . والقصيدة المذكورة أكثر من خمسين بيتاً ، أبياتها الأولى ما يأتي :

أفي كل يوم دمعة خلف غائب ... وفي كل يوم لوعة بعد غارب
رجال كأمثال النجوم ، فثاقب ... مضى وهو لمّاع على إثر ثاقب
لأوشك دمعي أن تجف شؤونه ... على كل ماض ليس يوماً بآيب
إذا ما انتهينا من رثاء لذاهب ... بدأنا رثاء بعد ذاك لذاهب
أما يستريح الشعر في كل ساعة ... رثاء لحر ، أو رثاء لصاحب ؟!
ثُريا رجالات تهاوت نجومها ... وكانت على الوادي ربا الكواكب

وقال صديقنا الفاضل إن أبيات الزين التي أخذنا منها أبياتنا ما يأتي :

أفي كل حين وقفة إثر ذاهب ... وصوب دم أقضي به حق صاحب
أودع صحبي واحداً بعد واحد ... فأفقد قلبي جانباً بعد جانب
تســـاقط نفسي كل يوم فبعضهـا ... بجوف الثرى ، والبعض رهن النوائب
فيا دهر دع لي من فؤادي بقية ... لوصل ودود ، أو تذكر غائب
ودع لي من ماء الجفون صبابة ... أجيب بها في البين صيحة ناعب

والقارئ لأبياتي ولأبيات الزين رحمه الله ، لا يجد كل هذا التهويل الذي أثاره الناقد الفاضل ، وإيضاحاً لذلك أقول : إن قصيدة الزين رحمه الله لا علم لي بها ، فهي ليست من محفوظاتي التي حفظتها في صباي ، وليست من القصائد التي قرأها الزين لي أو سمعتها منه ، ولا هي من المتداول المعروف بين الناس ، ومن الاتفاقات التي ليست بالعجيبة أن يحزن الزين لفقد أصدقائه ، وأحزن أنا لفقد أصدقاء لي ، أو لفقد رجالات من رجالات مصر ، فيقول كلانا قصيدته من بحر وروي واحد ، فيجيء بعد ذلك تشابه في بعض الألفاظ في بيت أو بيتين أو في بعض المعاني المطروقة للجميع ، وقد قلنا في مثل ذلك ندفع تهمة السرقة عن العقاد حينما كتب إلينا أديب ناشئ يقول إن العقاد سرق حينما قال :

فقبلت كفيه وقبلت ثغره ... وقبلت خديه وما زلت صاديا

فقد زعم الأديب الناشئ أن العقاد سرق هذا المعنى من قول القائل :

أعانقه والنفس بعد مشوقة ... إليه وهل بعد العناق تدانِ ؟
وألثم فاه كي تزول حرارتي ... فيشتد ما ألقى من الهيمان
كأنَّ فؤادي ليس يشفي غليله ... سوى أن يرى الروحين يمتزجان

نقول إننا قلنا لهذا الأديب الناشئ إنه لما كانت العواطف تتشابه فقد يجيء الشعر متشابهاً لأن الألفاظ وهي أداة التعبير عن العاطفة ملك لكل شاعر ، فإذا كانت العواطف المتشابهة يتفق فيها الكثير من الشعراء ، وإذا كانت الألفاظ التي هي أداة التعبير ملكاً لجميع الشعراء ، فإنه والحالة هذه يجدر بالناقد أن يتريث في حكمه على فلان أنه سرق من فلان .

هذا كلام قلناه قبل أن يموت دولة النقراشي باشا ، وقبل أن يرثيه الراثون ، ندفع به تهمة وجهت إلى شاعر ، ونُبصِّر الناشئين بالنقد السليم وصراطه المستقيم .

يقول ناقدنا الفاضل متحدثاً عني ما يأتي : « على أنني عجبت للأسمر وما هو بالعاجز عن النظم أن يكون أخذه من شعر الزين هكذا ظاهراً مكشوفاً » وأنا أقول لصديقنا الناقد إذا كنت تعلم أنني لست عاجزاً عن النظم فهلا درأت الحدود بالشبهات ؟! وإذا كنت تعلم أنني لست عاجزاً عن النظم فهلاً ترفعت يا صديقي عن أن تجعل من الحبة قبة ؟ وهلاً أرحت بالك من أن تشغله بأنني سرقت ألفاظاً هي ملك للجميع ، أو أغرت على معنى ليس من مبتكرات المعاني وابتداعاتها ، قال الجرجاني :

« ولست تُعد من جهابذة الكلام ولا من نقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرقة فيه ، والمبتذل الذي واحد أحق به من الآخر وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه » وقالوا « إن السرقة في البديع المخترع لا في المعاني المشتركة » وقالوا « إن صح أن الشاعر لم يسمع بقول الآخر فتلك الموارده » .

وسئل أبو الطيب عن مثل ذلك فقال الشعر جادة وربما وقع الحافر على موضع الحافر !!

ألم يمرَّ صديقي الأستاذ عباس على ذلك وأمثال ذلك قبل أن يجلس على منصة حكمه بمجلة الرسالة الغراء ، ثم يقول « الأسمر يسطو على شعر الزين » خصوصاً إذا كان صديقنا يقول إن الأسمر ليس بعاجز عن نظم الشعر .

ألم يقل امرؤ القيس (يقولون لا تهلك أسًى وتجمل) وقال طرفةُ (يقولون لا تهلك أسًى وتجلّدِ) ألم يقل امرؤ القيس :

وشمائلي ما قد علمتِ وما نبحتْ كلابك طارقاً مثلي

وقال عنترة :

وإذا صحوتُ فما أقصرُ عن ندًى وكما علمتِ شمائلي وتكرمي

ثم ألم يقل عنترة :

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ عليها الأسد تهتصرُ اهتصارا

وقال عمرو بن معديكرب :

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ تحيةُ بينهم ضربٌ وجيع

وقالت الخنساء ترثي أخاها صخراً :

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ فدارت بين كبشيها رحاها

ثم ألم يقل أبو تمام :

بمحمد ؛ ومُسوَّد ، ومُحسَّد ومُكرم ، وممدح ، ومعزَّلِ

وقال البحتري :

ذاك المحمــدُ والمســوَّدُ والمكرَّمُ والمحســد

* • *

هذا قليل من كثير تفيض به كتب الأدب والأمثلة على ذلك كثيرة من شعر المتقدمين والمحدثين ، ولولا خوف الإطالة ذكرنا ما جاء في الكتب ، وذكرنا ما لاحظناه نحن ولم تذكره الكتب ، ونحب أن نذكر هنا مما لم تثبته الكتب قليلا من الأمثلة :

قال امرؤ القيس متحدثاً عن نفسه في مرضه :

« ولكنها نفس تساقط أنفسا »

قال الزين رحمه الله في الأبيات التي ذكرها صديقنا وصديقه الأستاذ عباس :

تســـاقط نفسي كلَّ يوم فبعضهـا بجوف الثرى والبعض رهنُ النوائب

وكذلك قال عبد الله بن الخياط الأندلسي يصف الليل :

كأنه راهب في المسح منحنٍ شدّ الجرُّ له وسطاً بزنار

وقال البارودي في قصيدة عينية يصف فيها الليل بيتاً لا أذكر جميعه الآن جاء في آخره قوله : « كالراهب المتلفّع » ... ورثى شوقي رحمه الله صديقه المغفور له إسماعيل باشا صبري بقصيدته التي قال في أولها :

أجل وإن طال الزمان موافٍ أخلى يديك من الخليل الوافي

وهي قصيدة معروفة لدى خاصة الأدباء وعامتهم ، ثم جاء الجارم رحمه الله فرثى دولة النقراشي باشا من بحر هذه القصيدة ورويّها فوقع في موافقات لفظية كثيرة استرعت أنظار الأدباء لمعرفة خاصتهم وعامتهم قصيدة شوقي ولكنها لم تسترع نظر ناقدنا الفاضل ... ولو أردنا سرد ما نعلمه من هذه الأمثلة ، ضاقت به صفحات مجلة الرسالة .

وبعد : فهذا ما رأينا أن نعلق به على بعض ما جاء بكلمة صديقنا ، أما بقية النقد من هذه الألفاظ التي تخيرها لنا الصديق فليست لدينا أخواتها لنتحف بها صديقنا كما أتحفنا ، ولو أنها كانت لدينا أمسكناها عنه ، فقد رُضْنا أنفسنا على أن لا نتحف بها صديقاً كالأستاذ عباس ، مهما ألحَّ وألحف وتابع ولاحق ؟ ! ولا يفوتني أن أشكر له هذه العناية المتلاحقة بكل ما نقوله في بعض المناسبات ، فتعليقه على ما نقول أيا كان لون هذا التعليق تحايد من لدنه لنا ، وهو عناية على كل حال ! ويا حبذا لو تفضلت الرسالة الغراء وهي سجلٌ أدبي فنشرت قصيدة الأستاذ الزين كاملة ، ثم تفضلت فنشرت قصيدتي معها ...

رحم الله الأموات ، وغفر الله للأحياء .

محمد الأسمر

نصـــير الدين الطوسى

حامى الثقافة الاسلامية

وتراث العرب الفكرى إبان الغزو المغولى

للأســـتاذ ضياء الدخيلي

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

أما ياقوت الحموى فإنه قد توفى عام (٦٢٦ هـ) أى قبل وفاة الطوسى بـ (٤٦) عاماً ، وفى هـذا العهد لم يكن الطوسى قد اتصل بهولاكو ، إذ أنه خرج من سجن قلعة الموت واصطحبه هولاكو فى عام ٦٥٤ هـ وإذن فالمدارس والحياة العلمية التى يصفها ياقوت كانت فى مراغة قبل مجىء الطوسى إليها ، ولربما كان الطوسى وقت وفاة الحموى مؤلف معجم البلدان — فى طوس حيث كان يطلب العلم .

والغرض أن المراغة كانت مدينة علم وأدب فاختارها الطوسى مقراً لمدرسته . ويقول جورج سارتون فى كتابه المدخل إلى تاريخ العلوم : « إن حسن مناخها وصلاح جوها للارصاد الفلكية بصورة ممتازة — شجع الطوسى على بناء مرصده فيها » وقد التف حول الطوسى فيها جمهور من العلماء وطلاب العلم حتى أنه عندما رحل منها إلى بغداد فى عام (١٢٧٤ م) ارتحل فى جيش جرار منهم . قال ابن شاكر (المتوفى عام ٧٦٤ هـ) فى فوات الوفيات (وكان النصـير قد قدم من مراغة إلى بغداد ومعه كثير من تلامذته وأصحابه فأقام بها مدة أشهر ومات) .

فالطوسى فى جمعه رجال العلم حوله حفظ سلسلة الثقافة الإسلامية فى الشرق موصولة الحلق متصلة الأسباب وأبقى منار العلوم مضيئاً لم تطفئه هجمات الأمم الابتدائية ؛ وإذن فأى خدمة عظيمة توازى ما قام به الطوسى رحمه الله ؟

نعم لقد ألب عليه بعض المتعصبين من جهلاء المتقشفين الذين أمسكوا بقشور الدين وخسروا لبابه — لقد أثار عليه حفيظة هؤلاء تشيعه ، ولا ريب أن هـذا العامل الذى لا أهمية له فى الأوساط المثقفة المصرية — كان فى العصور الوسطى ذا أثر فى توجيه نقد الناقدين وتسديد حملاتهم الزائفة . ولا يهم مؤرخ الحضارة اليوم ما كان يعتنقه الشخص من عقيدة دينية بقدر ما يهمه من آثاره العلمية والأدبية وما أنتجته عبقريته ؛ فإذا وزنا قيمة النصير بهذا الميزان رجحت كفته ، فقد رأيت فى تتبعاتى الخاصة مدى اهتمام الغربيين بهذا الفيلسوف الرياضى العظيم . فى الوقت الذى ترى فيه الرجعيين الجامدين من المتزمتين يكيلون السباب جزافاً لهذا الفيلسوف العظيم نجد كبار مؤرخى الحضارة الإسلامية يسجدون لعظمة العبقرية النادرة فى شخص نصير الدين الطوسى وينسبون إليه المعجزات فى الرياضيات ويسجلون له الابتكارات والاكتشافات والاختراعات الرائعة فتسخر من هؤلاء الجهلاء الذين تحاملوا على كرامة الطوسى ، وأساؤا إلى سمعة المسلمين فى جهلهم بقيم رجال العلم وانصياعهم لداعى التعصب الذميم . لقد كان أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١ — ٧٥١ هـ) يخبط خبط عشواء (رحمه الله وعفى عنه) ، إذ قال فى ص ٢٩٧ من الجزء الثانى من كتابه (إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان) .

« وصارع محمد الشهرستانى ابن سينا فى كتاب سماه (المصارعة) أبطل فيه قوله بقدم العالم وإنكار المعاد ونفى علم الرب تعالى وقدرته وخلقه العالم ، فقام له نصير الإلحاد (يقصد نصير الدين الطوسى رحمه الله) وقعد ، ونقضه بكتاب سماه (مصارعة المصارعة) ووقفنا على الكتابين — نصر فيه : أن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض فى ستة أيام وأنه لا يعلم شيئاً وأنه لا يفعل شيئاً بقدرته واختياره ولا يبعث من فى القبور . وبالجملة فكان هـذا الملحد (أى نصير الدين) هو وأتباعه من الملحدين الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » . ومن قرأ كتب الطوسى فى علم الكلام آمن أن ابن قيم الجوزية مفتر على الرجل ، وأن كتب الطوسى فى الإيمان والعقائد وصلت إلى برلين ، ولم يصل إسمها إلى مؤلف إغاثة اللهفان إلى الباطل والبهتان . وقد شرح كتاب الطوسى تجريد العقائد جماعة من العلماء والمتكلمين الأفاضل وفى مقدمتهم المولى على القوشجى الشافعى

من سمرقند والعلامة الحلى من العراق . ثم يستمر ابن الجوزية فى هذيانه فيقول : (والفلسفة التى يقرؤها أتباع هؤلاء اليوم هى مأخوذة عنه (أى عن الطوسى) وعن إمامه ابن سينا . وبعضها عن أبى نصر الفارابى وشىء يسير منها من كلام أرسطو وهو مع قلته وغثاثته وركاكة ألفاظه كثير التطويل لا فائدة فيه . وخيار ما عند هؤلاء فالذى عند مشركى العرب من كفار قريش وغيرهم أهون منه .. » ولا أدرى كيف حكم بركاكة ألفاظ أرسطو فى لغته اليونانية التى أعتقد أنه يجهلها !

ولنعد إلى حديث المستشرق العلامة الفرنسى سديو فى كتابه تاريخ العرب العام .

قال (ص ٢٦٩ من تعريب عادل زعيتر) دخل المغول بغداد عنوة فانتهبوها فى سبعة أيام فخرقوا بعض المخطوطات الثمينة التى وجدوها فى المكتبات والمدارس وألقوا بعضها الآخر فى نهر دجلة فأصبحت مياهه من مدادها على حسب رواية مؤرخ عربى مبالغ فيها .

نهب المغول ما اشتملت عليه مدينة المنصور بغداد من الكنوز العجيبة مع أنهم سلبوا بخارى وسمرقند ومرو ونيسابور وأصفهان فيما مضى ؛ وخنق المستعصم بأمر هولاكو فجرت جثته الدامية تحت أسوار بغداد التى كانت شاهدة على عظمة العباسيين وانحطاط هؤلاء وذلهم .

وامحى العرب بين تلك الثورات (الداخلية) المتصلة — أمام برابرة الشمال والترك والمغول ولم يبق لهم كيان سياسى خارج جزيرة العرب أى تواروا من مسرح تاريخ أمم الشرق ؛ بيد أن الأثر المظيم الذى طبعوا به الحضارة لا يزال ظاهراً ، ولم يؤد ما وقع فى آسيا من الانقلابات إلى غير تأييده بأسطع بيان ؛ فقد رأينا أن ملكشاه السلجوقى اقتبس من مدرسة بغداد إصلاح التقويم الفارسى ، وأن محموداً الغزنوى اتخذ مشاوراً له ذا التأثير المظيم فى عصره العبقرى العالمى البيرونى .

ولما ظهر هولاكو المغولى الذى لا يعرف كيف يصون من النهب الآثار الرائعة التى جمعت بفضل ذوى البصائر أذعن لنفوذ نصير الدين الطوسى فأذن لهذا الرياضى الشهير فى إقامة مرصد نفم بمراغة .

ولما أصبح أخوه (كوبلاى) عاهل الصين نقل إلى مملكة ابن السماء معارف العرب . ولما مضى قرنان قامت على أنقاض الدولة المغولية دولة تيمورلنك الذى اعتقد وهو على رأس الترك الشرقيين أنه مرسل من الله ليملك آسيا بأمرها فخلفه ابنه شاهرخ وحفيده (ألوغ بك) فعد هذان الأميران ممثلى المدرسة العربية الأخيرين ، ثم كان للهندوستان التى أنارها علم البيرونى منذ عهد أصحاب غزنة بابن الأخ الصغير لأولوغ بك والمؤسس لدولة المغول فى الهند (بابر — كان للهندوستان حافز مثمر إلى ثقافة العرب (فى عهد بابر) انتهت شهادة المستشرق سيديو للعرب .

ولنصغ إلى شهادة مستشرق آخر هو السنيور كرلو نلينو الذى كان أستاذاً بالجامعة المصرية وبجامعة بلرم بإيطاليا (قديماً) فقد جاء فى كتابه (علم الفلك : تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى) وهو ملخص المحاضرات التى ألقاها بالجامعة المصرية ، وقد طبع الكتاب بمدينة روما سنة ١٩١١ م .

قال نلينو : « أما كتب العرب الفلكية فيجوز تقسيمها إلى أربعة أنواع ؛ الأول ، الكتب الابتدائية على صفة مدخل إلى علم الهيئة الموضح فيها مبادىء العلم بالإجمال ، ودون البراهين الهندسية كالجارى فى أيامنا فى كتب الكوزموغرافيا — ومن هذا النوع كتاب التذكرة لنصير الدين الطوسى وكتابه غير مطبوع ، ومنها الملخص فى الهيئة للجغمينى المتوفى سنة ٧٤٥ هـ (الموافق ١٣٤٤ م) طبع فى إيران مع شرح قاضى زادة الروى المتوفى فى نحو منتصف القرن التاسع [1] .

النوع الثانى ، الكتب المطولة المستقصى فيها كل العلم المثبتة لجميع ما جاء فيها بالبراهين الهندسية المتضمنة أيضاً لكافة الجداول العددية التى لا غنى عنها فى الأعمال الفلكية وهذه

(١) لقد سبق لى أن كتبت مقالا فى الرسالة الغراء فى العدد (٧٨٨) بعنوان جهود العرب العلمية فى الفلك وبوقته اجتهدت أن أعثر على ترجمة للجغمينى فلم أعثر وكذلك لم أعرف تاريخ وفاته حتى أن حاجى خليفة نفسه فى كشف الظنون (كتابه) — أيضاً لم يعثر على تاريخ وفاة الجغمينى فوضع مكان التاريخ أصفاراً ولم أدر أين عثر هذا المستشرق الإيطالى نلينو على تاريخ وفاة الجغمينى ولا شك أن فى مكتباتهم من المصادر المخطوطة ما ليس لدينا منه شىء .)

الكتب على منوال كتاب الجسطى لبطليموس فمنها تحرير المجسطى لنصير الدين الطوسى ونهاية الإدراك فى دراية الأفلاك لقطب الدين محمود بن مسعود الشيرازى (وهو تلميذ نصير الدين)

قال نلينو و (النوع الثالث) الكتب المعدة لأعمال الحساب والرصد فقط المساة أزياجاً أو زيجات أو زيجة ، ولفظ زيج أصله من اللغة الپهلوية التى كان الفرس يستخدمونها فى زمن الملوك الساسانيين [1] يقول نلينو فى هذه اللغة زيك معناه السدى الذى ينسج فيه لحمة النسيج ، ثم أطلق الفرس هذا الاسم على الجداول العديدة التى يبنى عليها كل حساب فلكى مع إضافة قوانين عملها واستعمالها مجردة فى الأغلب عن البراهين الهندسية . ومنها الزيج الصابى لمحمد بن جابر البتانى المطبوع بروما فى ثلاثة أجزاء ، وكتب أخرى عديدة (أقول ومنها الزيج الايلخانى للطوسى) .

وقد ذكر نلينو نصير الدين فى عدة مواضع من كتابه فقال ص ١٩٨ إن أحد علماء القرن السابع للميلاد أعنى سويروس الفرنسى عثر على اسم أحد علماء الفلك البابليين فى شرح نصير الدين الطوسى على كتاب الثمرة لبطليموس فزعم الطوسى أنه منجم بابلى صاحب كتاب يونانى ذائع الصيت وموضوعه صور الوجوه ، ألفه فى النصف الثانى من القرن الأول المسيح .

وأثنى نلينو على الطوسى ص ٢٣٦ فقال إن المستعمل الآن فى أيامنا تسمية الضلع المقابل للزاوية القائمة (وتراً) وهذا الاستعمال قد سبقنا إليه الطوسى فى كتابه تحرير أصول اقليدس فى الهندسة . وقال نلينو ص٢٤٤ ومما يستحق الذكر أن العرب توصلوا فى النصف الثانى من القرن الرابع إلى إثبات تناسب جيوب الأضلاع لجيوب الزوايا المقابلة لها فى أى مثلث كروى ، بل وضعوا هذه القاعدة أساساً لطريقة التى سموها (الشكل المغنى) فى حل المثلثات الكروية . قال نصير الدين الطوسى فى

(١) كان ابتداء الدولة الساسانية سنة ٢٢٦ م أى قبل الهجرة بثلثمائة وست وتسعين سنة شمسية وكان انقراضها سنة ٦٥١ م (كذا يقول نلينو) .

كتاب الشكل القطاع المطبوع فى القسطنطينية سنة ١٣٠٩) الخ وليس هنا مقام بيان ما خلد الطوسى من آثار رائعة فى الهندسة وعلم المثلثات وباقى الرياضيات فقد أفردت لذلك مقالا مستقلا . إنما نقتصر فى حديثنا اليوم على جهود الطوسى فى مرصد مراغة وفى علم الفلك والهيئة — فقد كانت حديث المستشرقين ومؤرخى الحضارة الإسلامية العربية ولم نجد من ضرب صفحاً عن ذكره أو ولغ فى ذمه إلا من أعماه التعصب الذميم

الحق أن الطوسى رحمه الله من مفاخر الثقافة العربية ومن العقول الجبارة التى غمرت الأوساط العلمية بنتاجها الخصب ، فازدهر تاريخ الشرق الأوسط . وقد أنقذ الطوسى منار العلوم بعد أن هددته عاصفة المغول وكادت تنطمس أنواره وتنمحى آثاره ؛ فهو الذى منع شر المغول عن الفلاسفة ورجال العلم وأنفق واردات الأوقاف الإسلامية فى بناء حياة علمية جبارة فى مراغة بقيت آثارها فى المكتبة العربية وكم من نفس أحياها باستنقاذها من سيوف التتار ، وكم من قلب أحياه بالعلم .

وانصح إلى الأستاذ فيليب حتى يحدثنا فى كتابه (تاريخ العرب) ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .

وإن هولا كو بعد تخريب بغداد بسنة شرع عام ١٢٥٩ بشيد بقرب بحيرة بورمية مرصد مراغة المظيم ، وقد كان أول مدير له نصير الدين الطوسى الشهير (نقلا عن ابن العبرى ص ٥٠٠ ، وعن جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله) .

وفى هذا المرصد نظم جداول فلكية جديدة سماها (الزيج الايلخانى) إذ ألفه على شرف هولا كو أو خانات المغول (أى ملوكهم) وقد ذاعت الجداول وأصبحت مألوفة فى جميع آسيا حتى فى الصين ، وأن آثار هذا المرصد القصير العمر لا تزال قائمة حتى الآن (١٩٣٧ م) وبالقرب منها مكتبة أسسها هولا كو أيضاً ، وقد قيل إنها كانت تحتوى ٠٠٠ ٤٠٠ مجلد ، وأكثر هذه الكتب كان قد نهبه جيوش المغول فى سورية والعراق وإيران

وقال فيليب حتى ص ٦٨٣ : لقد حافظ العرب بعد منتصف القرن الثالث عشر على قيادتهم للعلم من الفلك والرياضيات

القوة الحربية لمصر والشام
فى عصر الحروب الصليبية

للأستاذ أحمـــد أحمد بدوى

— ٦ —

وكان الجندى يمضى إلى القتال لابساً درعه ، وعلى رأسه البيضة أو المغفر(١) ، وفى يده ترسه أو درقته(٢) ، ويتسلح بالسيف أو الرمح أو الحربة(٣) أو الدبوس(٤) ، وهو عصا من خشب أو حديد ، مضلعة ملبسة بالكيمخت(٥) الأحمر والأسود

(١) البيضة من حديد تلبس على الرأس والمغفر كالبيضة إلا أن فيه أطرافاً مسدولة على قفا اللابس وأذنيه . صبح الأعشى ج ٢ ص ١٤٢

(٢) ترس من جلد صبح الأعشى ج٢ ص ١٤٣

(٣) أصغر من الرمح

(٤) ضرب من الجلود المدبوغة

(٥) صبح الأعشى ج ٣ ص ٧٠ ؛ وخطط المقريزى ج٢ ص ٢١٤

ذات رأس مدورة مضرسة (١) ، أو الالت (٢) وهو كالدبوس ولكنه ذو رأس مستطيل (٣) ، أو الستوفيات وهى عمد من حديد طولها ذراعان مربعات الأشكال لها مقابض مدورة(٤) ، أو الخنجر أو القسى والسهام والنبال والنشاب (٥) .

ويسير الجيش إلى الحرب وأهم ما معه من آلات القتال والحصار المجانيق ، ومنها الكبار تحملها مائة عجلة (٦) ، ومنها دون ذلك ، ومن أنواعه ما يشد بلوالب وأقواس ، أو يدار كالملاع . ويستخدم المنجنيق غالباً لهدم الحصون بالحجارة مضخمة أو لرمى الأعداء بالنبال أو العقارب ونحوها من آلات الأذى ، أو لإحراق أماكن العدو بالنفط وغيره (٧) . فإن

(١) كلمة فارسية معربة وهى الفأس المطبية

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٨٠ ؛ وخطط المقريزى ج ٢ ص ٣١٥

(٣) المرجعان السابقان

(٤) النبل ما يرمى به عن القسى العربية والنشاب ما يرمى به عن الفارسية . صبح الأعشى ج ٢ ص ١٤٢

(٥) السلوك ج ١ ص ٧٦٣

(٦) ذيل الروضتين ص ٢٠٤

(٧) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٥٨

حاوية المثلثات ، ومن الطب خاصة علم أمراض العيون ، ويقول فيليب حتى وكان الإقبال على التأليف — من العلماء الفرس الذين يكتبون باللغة العربية (والحق أن كثيراً من المؤلفين كانوا عرباً أقحاحاً) وكان مركز نشاطهم مرصد الخان (هولاكو) ومكتبته فى مراغة المؤسستين اللتين كانتا تحت إشراف نصير الدين الشهير (١٢٠١ — ١٢٦٤ م) يقول فيليب حتى ومن الجميل أن تقرأ كتاب الكاثوليكى اليعقوبى السورى أبى الفرج ابن العبرى (مختصر تاريخ الدول) وقد أرجعنا فيليب إليه لأنه كان معاصراً للطوسى وكان فى مراغة كما تقدم .

ويظاهر أن فيليب حتى لم يطلع على كتاب ابن الفوطى الذى كان أميناً لمكتبة مراغة وكاتباً لنصير الدين ، وقد طبع فى بغداد بإشراف الدكتور مصطفى جواد ، وعلى كل فإن من الغريب أن ينسى فيليب حتى المؤلفين من العرب فى ذلك العهد وهم كثيرون ومنهم من أخذه هولاكو إلى مرصد مراغة كمؤيد الدين العرضى الدمشقى ، وابن الفوطى ومحيى الدين المغربى وآخرين فى مصر والشام والأندلس وبغداد وعلى الأخص فى الحلة قرب بابل التاريخية على الفرات .

ومن أولئك العلامة الحلى تلميذ الطوسى وقد شرح كتابه التجريد فى الكلام وقرأ عليه الإلاهيات بالشفاء لأبى على بن سينا وبعض التذكرة فى الهيئة من تصنيفه . وأما ابن الفوطى فقد نقل ابن العماد الحنبلى أنه أسر فى واقعة بغداد وخلصه النصير الطوسى الفيلسوف فلازمه وأخذ عنه علوم الأوائل وبرع فى الفلسفة وغيرها وأمده بكتابة الزيج وغيره من علم النجوم . ومن معاصرى الطوسى — السيد على بن طاوس الحلى والشيخ ميثم بن على البحرانى . ومن مشايخه معين الدين سالم ابن بدران المصرى وآخرون رحمهم الله جميعاً .

ضياء الدخيلى

كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص، وإن كانت من الشوائل كالنفط ونحوه صنعوا لها كفة علقوها بسلاسل (١) .

والعرادات وترمى بالحجارة المرى البعيد أيضاً ، وهى أصغر من المجانيق(٢) .

ويتخذون الدبابات لتسلق أسوار العدو ، وهى آلات من الخشب السميك . وقد تكون طباقاً ، وتغلف بالجلود المنقعة فى الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير يدفعها الرجال ويصعد الجند فى أعلاها ويستعلون على السور ، وينزلون فوقه أو يحاربون المحاصرين من أعلى السور (٣) . وقد يستخدمون الدبابات لهدم الأسوار فيسيرونها ويحتمون بجدرانها ، ويجعلون رأسها عدداً يصدمون به الأسوار حتى تهدم(٤) ، أو يتخذون لهدم الأسوار الكباش ، وهى كالدبابات ولكن رأسها فى المقدمة مثل رأس الكبش ، وهو متصل فى داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال تجرى على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جره ، فيتحصن الرجال فى الداخل ، ويتعاونون من داخل الدبابة على ضرب السور حتى يخرقوه(٥) أو يتخذون الزحافات يدقون بها الحصون والأسوار . وبها أبراج للجند مجهزة بالقسى (٦) .

ويلقى الجند على أعدائهم بندقاً من الحديد يزن عشرة أرطال إلى مائة رطل (٧) ، ورماة هذا النوع من أدوات القتال يسمون الجوخية(٨) ، أو يقذفونهم بقوارير النفط والقطران يرمون بها الحصون والقلاع للاحراق ، ويسمى القاذفون بالزراقين ؛ لأنهم يستخدمون لذلك أنابيب تعرف بالزراقات (٩) .

ومن أشد ما استخدمه المصريون للفتك بأعدائهم النار اليونانية ، وقد كتب عنها الأستاذ عبد الله عنان فى كتابه : (مواقف حاسمة) حديثاً طويلا عن نشأتها وتطورها ، فذكر فى (ص ١٠٧) أنها كانت تركب من زيت النفط والكبريت والجير والقار . فينتج من ذلك السائل الملتهب . وكانت تستعمل فى حروب البر والبحر معاً ، فى أثناء التحام الصفوف ، وفى أثناء الحصار . فتقذف من فوق الأبراج أو الأسوار فى آنية كبيرة ، أو تطلق فى كرات مشتملة من الحديد والحجارة ، أو فى سهام ملتوية قد لفت بالقنب والوبر والشعر مشبعة بالسائل الملتهب . وأما فى المعارك البحرية فكانت تحمل فى سفن النار : الحراقات . وتطلق من أنابيب طويلة من النحاس ركبت على مضخات ضاغطة توضع فى مقدمة السفينة ، وتجعل على هيئة وحوش فاغرة أفواهها تقذف وابلا من النيران السائلة المضطرمة » ويذكر الأستاذ ما كان لهذه النار من أثر فى نفوس الفرنج فى معركة المنصورة ، وينقل لذلك قول مؤرخ شاهد عيان فى تلك المعركة من الفرنج هو « دى جوانفيل » الذى يصف هذه النار بأنها تثب مستقيمة كأنها أسطوانة كبيرة ، ولها ذيل من اللهب قدر الحربة ، ودويها يشبه الرعد ، وكأنها جارح يشق الهواء ، ولها نور ساطع جداً من جراء عظم انتشار اللهب الذى يحدث الضوء حتى إنك ترى كل ما فى المعسكر ، كما ترى فى ضوء النهار(١) ، ويصف هذا المؤرخ ما أحدثته هذه النار من تدمير فى معسكرهم ورعب فى قلوبهم ، ولم يستطع الصليبيون فى ذلك الحين معرفة سر تركيب هذه النيران .

وكان المسلمون يتقون مقذوفات عدوهم بستائر توضع على الأسوار والسفن لتستر المقاتلين(٢) ، ويكافحون نيران عدوهم التى تقذف على مراكبهم بأن يعلقوا حول سفنهم الحربية من الخارج جلوداً مبلولة بالخل والماء والشب والنطرون لدفع أذى النفط ، وكذلك كان يستعمل الأعداء فى تحصين آلاتهم الحربية ، ولكن بعض العرب قد اخترع من النيران ما لا يقف الخل فى سبيله : صنع العدو فى حصار عكا ثلاثة أبراج من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخل ، بحيث لا تنفذ فيها النيران ، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال عالية على سور البلد ، ومركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر ، ويتسع

(١) المرجع السابق ص ١٥٩
(٢) محيط المحيط
(٣) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٦٠
(٤) المرجع السابق
(٥) المرجع السابق
(٦) هامش السلوك ج ١ ص ٥٢٦
(٧) صبح الأعشى ج ٢ ص ١٤٤
(٨) السلوك ج ١ ص ٤٩٨
(٩) صبح الأعشى والسلوك

(١) معارك حاسمة ص ١٠٨
(٢) النوادر لابن شداد ص ١٠٣

سطحها ، لأن ينصب عليه منجنيق ، وقد ملأ ذلك نفوس المسلمين خوفاً ورعباً ، ويئس المحاصرون فى المدينة ، ورأوها وقد تم عملها ولم يبق إلا جرها قرب السور وأعمل صلاح الدين فكره فى إحراقها ، وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين وحثهم على الاجتهاد فى إحراقها ، ووعدهم على ذلك بالأموال الطائلة والعطايا الجزيلة ، ولكن ضاقت حيلهم عن ذلك . وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقى ذكر بين يديه أن له صناعة فى إحراقها وأنه إن مكن من الدخول إلى عكا ، وحصلت الأدوية التى يعرفها أحرقها ؛ فحصل له جميع ما طلبه ، ودخل إلى عكا وطبخ الأدوية مع النفط فى قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار ، ثم ضرب واحداً بقدر ، فلم يكن إلا أن وقعت فيه ، فاشتعل من ساعته ووقته ، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء ، واستغاث المسلمون بالتهليل ، وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب . وبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثانى بالقدر الثانية ، فما كان إلا وصلت إليه واشتعل كالذى قبله فاشتد ضجيج الفئتين ، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب وغشى الناس من الفرح والسرور ماحرك ذوى الأحلام [1]

وهكذا نرى تفوق المسلمين الحربى فى تلك العصور .

واستخدم المسلمون فى سفنهم الكلاليب يلقونها على مراكب أعدائهم . فيقفونها ، ويشدونها إليهم ، ثم يصنعون جسوراً من الألواح تصلهم بها ، فيدخلون إليها ويقاتلون أصحابها [2]

ولخلق جو من الحماسة فى صدور الجند استخدموا ، والمعركة دائرة ، دق الكئوس ونفير الأبواق ، كما تصنع الآن الفرق الموسيقية .

هذا وكانت آلات القتال تصنع فى مصر والشام وتباع فيهما فى سوق السيوفيين وسوق السلاح .

* * *

وعنى فى ذلك الحين بإنشاء القلاع فى المدن ، والأسوار حولها وكان صلاح الدين يتفقه فى كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق [3] وأحب أن يجعل لنفسه معقلا بمصر كمعاقل الشام ، فأمر بإنشاء قلعة بالقاهرة وسور يحيط بها وبالقلعة ومصر وأقام على عمارة ذلك بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فبدأ فى بناء ذلك سنة ٥٧٢ وهدم ما هنالك من المساجد ، وأزال القبور ، وهدم الأهرام الصغار التى كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ، ونقل ما وجد بها من الحجارة ، وبنى به السور والقلعة وقناطر الجيزة وتم قسم كبير من القلعة . وكان صلاح الدين يقيم بها أياماً ، كما سكنها العزيز عثمان ، فى أيام أبيه ، ولكن السلطان مات قبل أن يتم العمل فى السور والقلعة فأهمل العمل إلى أن كانت أيام الملك الكامل محمد ، فإنه أتم بناء القلعة وأنشأ بها الآدر السلطانية ودواوين الدولة ، وسكنها حتى مات ، وظلت من بعده دار مملكة مصر إلى أن كان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فإنه أنشأ قلعة بالروضة شرع فى حفر أساسها يوم الأربعاء ٥ شعبان سنة ٦٣٨ [1] . وهدم لها ما كان فى هذه الجزيرة من دور ومساجد وكنائس ، وقطع ألف نخلة مثمرة ، كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظره وطيب طعمه ، وأنفق فى عمارة قلعته أموالا جمة ، وبنى فيها الدور والقصور ، وعمل لها ستين برجاً ، وبنى بها جامعاً وغرس فيها جميع الأشجار ، ونقل إليها عمد الصوان من البرابى وعمد الرخام وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والزاد والأقوات خشية محاصرة الفرنج ، وبالغ فى إتقانها مبالغة عظيمة . وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل حتى بلغت حداً يدهش ؛ لكثرة زخرفها وحسن سقوفها وبديع رخامها . ولما كملت تحول إليها بأهله وحرمه [2] واتخذها دار ملك ، وأسكن فيها معه مماليكه البحرية ، ولم تزل هذه القلعة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب . فلما ملك المعز أيبك أمر بهدمها ، وعمر منها مدرسة ، وطمع فى القلعة من له جاه ، فأخذ ما روقه من سقوفها ، وأخشابها ، وشبابيكها حتى بنى بعضهم منازل منها [3] ، فلما جاء بيبرس اهتم بعمارة قلعة الروضة ، وأراد إعادتها كما كانت ، فأصلح بعض

(١) النوادر لابن شداد ص ١٠٣
(٢) تاريخ الأسطول العربى ص ٧٠
(٣) طبقات الشافعية للسبكى ج ٤ ص ٣٣٠

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٣٠
(٢) السلوك ج ١ ص ٣٠١
(٣) ابن دقماق ج ٤ ص ٩٧

ما تهدم فيها ، ولكن هيئتها لم تدم فإن قلاوون لم يكد يشرع فى بناء البيمارستان والقبة والمدرسة المنصورية ، حتى أخذ من قلعة الروضة مايحتاج إليه منها ، كما أخذ الناصر محمد منها ما احتاج إليه فى بناء أبواب بقلعة الجبل وجامع له . وهكذا ذهبت القلعة كأن لم تكن [(١)] .

أما بلاد الشام فكانت مليئة بالقلاع والحصون كقلعة حلب وقلعة دمشق وحصن الكرك وكوكب ، وشقيف أرنون وبصرى وهونين وتبنين وتل باشر وقلعة حماة وحمص وعكا والشوبك وصرخد وكثير غير ذلك . ومعظمها يناطح السحاب بعلوه ويشبه الجبال بمتانته [(٢)] وعنى بهذه القلاع والحصون ؛ لأن المدينة إذا خلت من حصن يسهل على العدو أن يجتاحها كل حين . وأحياناً كان السلمون يضطرون إلى هدم أسوار المدن وقلاعها ، حتى لايتحصن بها الأعداء إذا سقطت فى أيديهم ، وقد شاهدنا أمثلة لذلك فيما مضى .

ومما عنى به فى ذلك الحين برجا دمياط ، فقد كانت دمياط هدفاً للصليبيين فى ذلك العصر ، هاجموها فى عصر الدولة الفاطمية والأيوبية . والمؤرخون مختلفون فى وصف هذين البرجين ؛ فأبو شامة يجعل البرج واحداً فى وسط النيل ، ودمياط بحذائه من شرقيه ، والجزيرة بحذائه من غربيه ، وفى ناحيتيه سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى الجزيرة ، تمنعان عبور المراكب من البحر المالح ، فهو قفل الديار المصرية إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها ، ومتى لم تكونا عبرت المراكب ، وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص وأسوار .

والمقريزى فى السلوك (ج ٢ ص ٧٣ وص ١٨٨) والخطط (ج ١ ص ٣٤٧) يقول . « وكان إذ ذاك على النيل برج منيع فى غاية القوة والامتناع فيه سلاسل من حديد عظام القدر والناظ تمتنع فى النيل لتمنع المراكب الواصلة فى بحر الملح من عبور أرض مصر ، وتمتد هذه السلاسل فى برج آخر يقابله ، ويعرف اليوم مكانهما فى دمياط بين البرجين » . وأبو شامة قد وصف ما رآه

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٩٩

(٢) خطط الشام ج ٥ ص ٢٩٢ و٢٩٣ و ٢٩٤

والظاهر أن البرج الثانى القريب من شاطىء دمياط لم تكن له أهمية حربية ، كالبرج القريب من الشاطىء الثانى . ويرجع إنشاء هذا البرج غالباً إلى أيام المتوكل سنة ٢٣٧ . فإن دمياط منذ العصور الأولى للاسلام كانت محط أنظار الغزاة [(١)] .

وعنى صلاح الدين بهذين البرجين ، فرتب المقاتلة عليهما ، وأتقنت السلسلة التى بين البرجين وشدت إليها مراكب ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ، ورم شعث سور المدينة ، وسدت ثلمه ، فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار .

وهاجم الفرنج دمياط سنة ٦١٥ فى آخر أيام العادل ، وعملوا آلات ومرمات وأبراجا متحركة يزحفون بها فى المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه ، حتى يتمكنوا من المدينة ، وألحوا فى مقاتلة أهل البرج ، فلم يظفروا منه بشىء مدة أربعة أشهر ، ثم احتال الفرنج فأقاموا برجاً من الصوارى على بطسة كبيرة وأقلعوا بها حتى أسندوها إليه ، وقاتلوا من به حتى أخذوه [(٢)] . وكان ذلك ممهداً لأخذهم دمياط على ما ذكرنا . ولما علم العادل بأخذ الفرنج برج السلسلة تأوه تأوهاً شديداً ، ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً ومرض من ساعته ، واشتد مرضه حتى مات [(٣)] قال أبو شامة : وأذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ الفرنج برج السلسلة وقد شق ذلك على من يعرفه مشقة شديدة ، ومنهم شيخنا أبو الحسن السخاوى ، ورأيته يضرب يداً على يد ويعظم أمر ذلك . وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه ، فقال : هو قفل الديار المصرية ، وصدق [(٤)] . ويظهر أن الفرنج خربوا هذا البرج كى لا يكون عقبة فى سبيلهم ولا قوة فى أيدى المصريين كرة أخرى ، فإنا لم نسمع شيئاً عنه عند ما غزا الفرنج دمياط فى عهد الصالح نجم الدين أيوب ، ثم عمره قطز ، وهو البرج الذى اعتقل فيه أسرة المعز أيبك [(٥)] .

(النهاية فى العدد القادم)

أحمد أحمد بدوى

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٤٥ — ٣٤٦

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٧

(٣) السلوك ج ١ ص ١٩٠

(٤) هامش المرجع السابق ص ١٨٨

(٥) السلوك ج ١ ص ٤١٨

ليتني أدري!

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

ليتني أدري!
ما الذي يغري يا حبيب الروح
بالهوى البكرِ قلبي المجروح؟
روحك الهيمان؟ جسمك الريان؟
حرت في أمري ليتني أدري!

ليتني أدري!
ما الذي يجري خلف هذا الباب؟
والهوى يسري في دمي المنساب!
آهة حرَّى تحمل السرَّا!
حرت في أمري ليتني أدري!

ليتني أدري!
والدجى مسحورْ حول أيامك!
هل ينبع النور من أحلامك؟
إنها الأشباح أشعلت الصباح!
في يد الفجر علني أدري!

ليتني أدري!
كيف لا يظهر سرك المستور؟
نورك الأحمر كيف يخشى النور؟
بينما سري ذاع في شعري!
آه من أمري! ليتني أدري!

ليتني أدري!
حين تنسابْ موجة الإحساس!
ترقص الأهداب تسرع الأنفاس!
يخفق القلبُ هل هو الحبُّ؟
حرت في أمري ليتني أدري!

وفاء وحنان...

للآنسة (ن. ظ. ع)

(من وحي قصة سينمائية غربية شاهدتها على الشاشة تمثل أروع صورة للحنان الإنساني يضفيه رجل على أسرته وزوجته المريضة، مما يهز أرق المشاعر، ويثير أنبل الخواطر).

إلهي... أفي الغرب هذا الوفاء؟ أتحظى النساء بهذا الحنانْ؟
وفي الشرق يظلمهُنَّ الرجال ويقسو عليهن صرْف الزمان!

أتُظْلَمُ حواء روح الحنان ويُجزى الوفاء بهذا العقوق؟
أتظلم بالشرق مهد الهداةِ وأرض الهداة بنيْل الحقوق؟

أرى حكمة الله في شرعه ترد الفساد وتهدي الضلال
ففيم التلاعب بالدين... ربي وباسم الشريعة يطغى الرجال!

يُريدونهنَّ متاعاً لهم تعدَّدنَ مثنى به أو رُباع
أهذا هو الشرع... يا ويحهم لقد صيَّرُوه سبيلَ الخداع

أخذتم من الغرب تلك القشور وحب المظاهر دون اللُّباب
وأنتم لعمرىَ لا تبتغون سوى الجسم مثل جياع الذئاب

وأنكرتم الروح... يا ويحكم وأين هو الرفق! أين الحنان؟
ونبل النفوس؟ وصدق الوفاء؟ وأين النبيل بهذا الزمان!

ويالهفَ من ضلَّلتها المعاني وحثَّت خطاها ابتغاء الكمال
فطاح الخيال بعذب الأماني ولم تدر أين تحطُّ الرحال!

ضَنَنْتُ بأحلامها أن تُسامَ صغار الجسوم وثِقل الأنام
أتهوى إلى الطين بعد التسامي كما يسقط النجم فوق الرَّغام؟

تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

أدعياء الأدب فى الصحافة اليومية :

يأخذ على بعض القراء هذا العنف الذى ألقى به الحياة الأدبية فيما أكتب من تعقيبات ؛ والواقع أننى لا ألجأ إلى هـذا الاتجاه حباً فيه ولا ميلاً إليـه ، ولـكن الحياة الأدبية هى التى تدفعنى دفعاً إلى أن أسلك هذا الطريق وترغمنى إرغاماً على أن أسير فيه ! وما ذنبى إذا كنت أقع على أشياء تجافى الحق والذوق ، وتصدم الخيال والواقع ، وتخالف منطق الحياة والأحياء ؟! وما ذنبى إذا مددت عينى إلى صحيفة من الصحف أو مجلة من المجلات فرأيت ناقداً يكتب فى غير مجاله ، أو أديباً يطمس الحقائق بسخف خياله ، أو شاعراً يفرض شعره على الناس وهو محروم من نعمة الشعور ؟! ...

يا من تأخذون على العنف فى معالجة القضايا الأدبية ، تعالوا واقرأوا معى هذه الـكلمات ؛ إنها من مقال كتبه فى «المصرى» الأستاذ عبد الرحمن الخميسى تحت عنوان «لمنة القلم» .. اقرأوها معى لتعلموا إلى أى حد تنتهى بعض الأقلام حين تتناول مشكلات الأدب والفن هـذا التناول الذى يبعث على الضحك والعجب والإشفاق ! يقول الأستاذ الخميسى :

« ألم تبدل موسيقى فاجنر الألمـانى اتجاه الحياة فى ألمـانيا تبديلا عظيما ؟ إن فاجنر الفرد الواحد ، الذى تغلغلت موسيقاه فى نفوس الألمان والذى طبعت أنغامه بوحشيتها وقوتها روح الشعب الألمانى ، والذى حفزت ألحانه الناس إلى الاستعلاء وإلى التحليق ، هذا الفرد الواحد كان يكتب بقلمه موسيقاه حروفاً صماء على الورق ، ثم يشمل بهذه الحروف حين يعزفها الأوركسترا أرواح الملايين ويبهرها ، ويجلوها ، ويرتفع بها إلى مايين ! . . كانت موسيقى فاجنر الأفق المجيد الذى استنزل منه نيتشه الشاعر الفيلسوف أروع قصائده وأبسل أغانيه ، وكانت هى الأفق المجيد الذى استلهمه فاجنر صورة الإنسان الأعلى . وهكذا ترى أن موسيقى فاجنر هى التى فتقت أكمام العبقرية فى نيتشه ، وهى التى مهدت الطريق المذهب النازى . . الخ » !

بجرة قلم فتقت موسيقى فاجنر أكمام العبقرية فى نيتشه . . . من أين جاء الـكاتب بهذا الرأى الذى يذوب خجلا أمام الحقيقة ؟ لا أدرى ولا النجم يدرى كما يقول المـازنى ! يبدو أن موجة الإعجاب بسحر هذا التعبير « فتقت أكمام العبقرية » هى التى طغت برنينها المذب على جوهر الواقع فشوهته فى غفلة من أعين الرقباء !

إن المثقفين فى كل مكان يعلمون أن موسيقى فاجنر قد لقيت من قلم نيتشه أعنف وأبشع مالقيته موسيقى فنان من قلم فيلسوف ! . من يصدق أن فاجنر قد فتق أكمام العبقرية فى نيتشة ، نيتشـة الذى رمى موسيقاه بكل نقيصة ، وأذاق فنه من ألوان الهـدم والسخرية ما أذاق ، ورفع فى وجهه معول التدمير يهوى به فى ضربات قاسية لا تعرف ليناً ولا هوادة ؟!

فاجنر فى رأى نيتشة مثال فذ للشخصية المنحلة ، وموسيقى فاجنر فى ذوق نيتشة نموذج صادق للموسيقى المريضة ، وفن فاجنر فى ميزان نيتشة همجية تختلط فيها الشعوذة بالجنون ! . . إن فاجنر كما يقول نيتشة : « لا يستطيع أن يهز بموسيقاه إلا أعصاب النسـاء ، وهكذا تفعل الموسيقى المريضة ! إن فنه يستند إلى دعائم زائفة لا يمكن أن يرضى عنها إلا كل منهوك القوى منحل الشخصية محطم الأعصاب . . إن الفيلسوف الرابض بين جوانحى ليثور على كل ما هو مريض ومنحل ! إن القدرة على خلق فن منحط أهون بكثير من القدرة على خلق فن رفيع ؛ ومن هنا استطاع فاجنر أن يرضى الأذواق الفاسدة ، الأذواق (الفاجنرية) المنحرفة ! .. إن هذا العصر الذى نعيش فيه ليدين بشروره وآثامه إلى شخصية فاجنر ، هذا المتلف الهدام » !

هـذه هى الموسيقى التى قال فيها نيتشة ما قال ، وقال عنها عبد الرحمن الخميسى إنها كانت الأفق المجيد الذى استنزل منه نيتشة أروع قصـائده وأبسل أغانيه ! . . . إننى أنصح قراء « الرسالة » أن يصدقوا نيتشة ، أما قراء « المصرى » فلا بأس من أن يصدقوا عبـد الرحمن الخميسى إذا قال لهم إن موسيقى

فاجنر هى التى خلقت عقلية هتلر وفون مولتكه وبسمارك . . . وفريدريك الأكبر !!

ترجمة تحتاج إلى تصويب :

تحدث الدكتور عبد الرحمن بدوى فى عدد « شباط » من مجلة الأديب اللبنانية عن مسرحية الأيدى القذرة « Les mains Sales » للكاتب والفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر .. ولقد استوقفنى ما جاء بمقاله من ترجمة خاطئة لبعض كلمات رأيت أن أصححها ، حتى لا تبعد الشقة بين أصلها فى الفرنسية وبين ما يقابلها فى العربية :

ترجم الدكتور بدوى هذه الكلمات « La putain respectueuse » وهى عنوان مسرحية لسارتر « بالعاهر المهيبة » ؛ وهنا يبدو شىء من الانحراف فى الترجمة لا يستقيم معه المعنى سواء أكان منسوباً إلى عنوان المسرحية أم كان منسوباً إلى الفكرة التى بنيت عليها ! . . . إن المهابة كما يدل عليها موضوع المسرحية وكلمة « respectuéuse » لا تنسب إلى « العاهر » وإنما تنسب إلى المحيطين بها عشاق الجسد ، أولئك الذين كانت ترحب بهم وتحتفى بمقدمهم ؛ وإذن تكون الترجمة الصحيحة هى « العاهر الحفية » . أما « العاهر المهيبة » فلا يقابلها فى الفرنسية غير هذه الكلمات :

« La putain respectable » .

وترجم الدكتور بدوى عنوان مسرحية أخرى لسارتر ترجمة خاطئة أيضاً وهى مسرحية « La nausée » ، حيث قابلها بكلمة « القرف » مع أن ترجمتها الدقيقة هى « الغثيان » . . والفارق بين الترجمتين بعيد !

أما قوله بأن « الأيدى القذرة » هى خير ما أنتج سارتر إحكام صنعة فنية وبراعة حوار وإبداع تسلسل ، فلا أجد فى الرد عليه خيراً من رأى الدكتور طه حسين بك فى هذه المسرحية ، وهى أنها أقل أعمال سارتر الأدبية توفيقاً فى مجال العمل الفنى الذى يقوم عليه بناء التمثيلية الحديثة ، وهو رأى جهر به الدكتور طه — كما قال لى — فى وجه مديرة المسرح الفرنسى الذى مثلت عليه مسرحية سارتر ، يوم أن سمت إليه السيدة تسأله من رأيه فى « الأيدى القذرة » . . ومما هو جدير بالذكر أن المحيطين بالدكتور قد حاولوا فى شىء من اللباقة أن يخففوا من وقع رأيه على شعور السيدة الفرنسية ، ولكن صراحته المعهودة أبت إلا أن تؤكد المرة الثانية ما سبق أن أفضى به ، وهو أن هذه المسرحية عمل فنى يعوزه التوفيق !

بين طه حسين وتوفيق الحكيم :

لم يسعدنى الحظ بالاستماع المحاضرة القيمة التى ألقاها الدكتور طه حسين بك عن « قصة أوديب فى الآداب المختلفة » ، والتى تناول فيها بالنقد والتحليل بعض الأعمال الفنية التى أعقبت أوديب سوفوكل . . ولقد حدث أن خرج بعض المستمعين لمحاضرة الدكتور وقد وقع فى ظنهم أن الأستاذ توفيق الحكيم قد ناله رشاش من التهكم حين جاء ذكر مسرحيته فى سياق الحديث ! هذا ما فهمته من بعض الذين لقيتهم عقب المحاضرة ومما أورده صديقى الأستاذ عباس خضر حين عرض لها فى الأسبوع الماضى بالتلخيص والتعقيب .

ومن العجيب أنه قد وقع فى الظن أيضاً أن علاقات الود والصداقة بين الدكتور والأستاذ الحكيم تجتاز مرحلة من الفتور ، ليس أدل عليها من هذا الذى قيل وتعرض فيه صاحب « أوديب الملك » لشىء من السخرية !

أود أن أؤكد هنا أن كل ما تبادر إلى الأذهان من ظنون لا يستند إلى دعامة واحدة من دعائم الحقيقة ، فعلاقات الود والصداقة لا تزال تربط بين الرجلين بأقوى رباط .. وإذا كان الدكتور طه قد لجأ فى حديثه إلى شىء من العنف أو إلى شىء من القسوة ، فرجع ذلك إلى صراحته المعهودة التى لا تجامل صديقاً على حساب القيم الفنية والموازين النقدية ، وتلك ناحية أكدها لى الدكتور حين فاتحته فى هذا الأمر منذ أيام . ومما يؤيد هذا القول تلك القصة الطريفة التى أتيت على ذكرها فى الكلمة السابقة ، والتى تمثل بوضوح صراحته السافرة عندما سألته مديرة المسرح الفرنسى عن رأيه فى مسرحية « الأيدى القذرة » ولا أظن أن أحداً يستطيع أن يتهم الدكتور طه بأنه كان يسخر من فن سارتر أو يتهكم عليه . . وإذا كان الأستاذ الحكيم قد تعرض فى ثنايا المحاضرة لشىء من العنف فقد تعرض فولتير لهذه

العبارة القاسية ، وهي أنه في تناوله لقصة سوفوكل قد أمعن في سخف لا يطاق !

لا أدرى لم يعد الناس هنا قسوة النقد تهكما وصراحة الناقد سخرية ، ولم يميلون في مثل تلك المواقف إلى الظن بأن بين الناقد والمنقود أسباباً من الجفاء يفسرها الوهم بالتحامل ويردها الخيال إلى محاولة النيل من الأقدار ؟ ! ألا يجدر بنا أن ننظر إلى الأمور من خلال منظار آخر يهيء لنا رؤية الحقائق في جو لا يكتنفه هذا الضباب ؟ إننى أود أن تتحقق هذه الأمنية في يوم من الأيام !

درس آخر في أدب القصة :

يبدو أننى لن أفرغ من هذه الدروس التى تلقى على من حين إلى آخر في أدب القصة ؛ فبعد أن عقب أحد الأدباء على ما كتبت حول مسابقة الصور للقصة القصيرة ، وبعد أن رددت عليه بكلمات أعتقد أنها وضعت كل شيء في مكانه ، بعد هذا كله هب « أستاذ » آخر ليمدنى بنصائحه ويزودنى بمعلوماته وهو الأستاذ نصرى عطا الله !

إننى أرحب بأن أكون « تلميذاً » مخلصاً على شرط أن يكون « أساتذتى » على شيء من العمق والإحاطة ... وأشهد أننى لا أضيق بالتوجيه والإرشاد ولو صدر من أديب لم أسمع به من قبل على شرط أن يكون في توجيهه وإرشاده ما يهدينى إلى أشياء تدق على فهمى المتواضع ؛ ولكن الذى أضيق به ، هو أن يتحدث الأستاذ عطا الله عن فن القصة القصيرة بهذه اللهجة التى تذكرنى بخالدى الذكر « تين وسانت بيف وأرنولد » ، ثم لا أخرج من كلته بشيء يمكن أن يدفع بى إلى الصف الأول من صفوف تلاميذه !

ينكر الأستاذ عطا الله أن مجال العمل الفنى في القصة القصيرة مجال محدود ، فهل يأذن لى بأن أقدم إليه هذا التعقيب الطريف الذى أدلى به الأستاذ توفيق الحكيم في حديث دار بينه وبينى يوم أن قامت بهذا الرأى ؟ لقد قال الأستاذ الحكيم : « أنا معك في أن العمل الفنى في القصة القصيرة لا يمكن أن يقاس إلى نظيره في القصة الطويلة ، إلا إذا أمكن أن يقاس سباق القطط إلى سباق الخيل ؟ ! »

ومن العجيب أن الأستاذ عطا الله يحرم على القارئ الشرقى أن يحكم على شخصيتى موباسان وتشيكوف لأن ما نقل من أدبهما إلى العربية أقل من القليل ، ومع ذلك فقد أباح لنفسه أن يتحدث عن موباسان وتشيكوف بلهجة تذكرنى أيضاً بخالد الذكر بندتو كروتشه ... ألم أقل لك إن ما يباح للأساتذة يحرم على التلاميذ ؟!

هذا هو كل ما يستحق التعقيب في مقال الأستاذ عطا الله ... ومعذرة يا « أستاذى » ، فقد علمت من آخر صفحة في عدد « الرسالة » الماضى أنك قد فزت بجائزة من جوائز الدرجة الثانية في مباراة القصة القصيرة التى أقامتها وزارة المعارف ؛ ومعنى هذا أن هيئة التحكيم التى لم تقدر فنك كانت أجدر منى بهذا الدرس القيم في أدب القصة !

أين العلوم في الرسالة ؟ :

يسألنى الأديب الفاضل الأستاذ عبد المنعم العزيزى في رسالة بعث بها إلىّ عن مكان العلوم في « الرسالة » ، مع أنها تحمل هذا الشعار : « مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون » ... ثم يعقب على سؤاله بقوله إن المهتمين بالبحوث العلمية يجب أن يخصص لهم في « الرسالة » بعض الصفحات ، أسوة بعشاق النقد والقصة والفلسفة والسياسة والاجتماع ممن تقدم إليهم مجلتنا الرفيعة من أسبوع إلى آخر فنوناً من هذه المعارف المختلفة ... ثم يقول في ختام كلمته إنه يود أن تستجيب « الرسالة » لهذا الرجاء حتى تكتمل لها رسالتها المثلى في خدمة الأدب والعلم والفن ، وبخاصة في هذه الأيام التى يقوم فيها العلم بأخطر أدواره في توجيه حياة البشر ورسم الطريق أمام مستقبل الإنسانية !

الواقع أنه لو كان الأمر بيدى لاستجبت لرجاء الأديب الفاضل لأننى أوافقه على هذه الآراء الناضجة ... وكم كنت أود أن يكون لى في رحاب العلم قطرة من فيض العالم الجليل الأستاذ نقولا الحداد ، إذاً لكفيته مؤونة السؤال والرجاء ، ولعل الأستاذ الحداد يحقق يوماً هذه الأمنية ، فيمطر صفحات « الرسالة » بنزير علمه ، بعد أن عطرها بوخز « المخلوقات الخبيثة » بسنان قلمه !

أنور المعداوى

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

النقد الأدبي في القرن العشرين :

ألقى الدكتور محمد مندور يوم السبت الماضي محاضرة عنوانها « النقد الأدبي في القرن العشرين » في القاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية . وقد بدأ بتعريف النقد الأدبي بأنه فن تمييز الأساليب قائلا بأن الأسلوب ليس هو طريقة الأداء اللغوي فحسب بل هو كذلك طريقة إدراك الكاتب للعالم الخارجي ثم مدى قدرته على اصطياد المعاني والأحاسيس وإسكانها اللفظ اللائم . ثم قال إن النقد فن لا علم ، ولكنه لا يقوم على الجهل ، فأول ما يطلب في الناقد الاستنارة ، وإن الناقد يلزمه أن يحصل كثيراً من المعارف ولكن يجب عليه أن ينساها في الأدب ، فثقافة الإنسان هي ما يتبقى في نفسه بعد أن ينسى ما حصله . والثقافة التي تنبغي للناقد متعددة الجوانب ، وأولها الأدب ذاته الإنشائي والنقدي ، ومن ذلك معرفة المعنى الدقيق للكلمات والاصطلاحات ، فإن كثيرين يرددون كلمات مثل « الواقعية » و « الرمزية » وهم يفهمون خطأ غير معناها ، فيفهمون الواقعية مثلا على أنها تصوير لواقع الحياة كما هو ، ويتبادر ذلك إلى أذهانهم من المعنى اللغوي للكلمة . غير عالمين بالملابسات التاريخية لهذا المذهب الذي يقوم على النظرة إلى الجانب الحالك من الحياة والإيمان بعدم وجود الخير فيها . ومن ذلك مذهب « الفن للفن » فليس هو كما يفهمه الكثيرون من أنه يقتضي الخروج على مواضعات المجتمع والأخلاق ، وإنما هو يدعو إلى أن تكون غاية الفن صور جميلة لذاتها ، وأن الفن غاية في ذاته وليس وسيلة للتعبير عن مشاعر خاصة .

ثم قال الدكتور مندور : إن ثقافة الناقد في القرن العشرين أصبحت ضرورية لتعدد المذاهب واختلاطها ، فمثلا كانت المسرحية إما كوميديا أو تراجيديا ، فجاء النقاد في القرن العشرين يقولون إن الحياة ليست كلها مآسي كما أنها ليست فكاهة مغرقة في الضحك ، فهي ليست بالسوداء ولا بالبيضاء الخالصة ، وإنما هي خليط من الأمرين ، فما الذي يمنع من وجود لون رمادي على المسرح ، هو الدراما التي تجمع بين الحزن والضحك ؟

ثم تساءل المحاضر : ترى هل يستحق النقد كل ذلك العناء ؟ وأجاب بأن النقد ليس تبعياً وإنما هو خلق أدبي ، وسيان أن يتحدث جيته عن منظر طبيعي أو إنسان في الحياة وأن يتحدث عن شخصية روائية أو كاتب زميل ، فتحصيل الأدوات للنقد جهد غير ضائع .

وبعد ذلك قال الدكتور مندور : وفي مصر هل نستطيع أن نقول إن النقد الأدبي قد استقر له أصول ؟ ترجمت كتب ، وكتب نقاد ، بحيث نلاحظ أن النقد أخذ يرتفع عن الشخصيات إلى الأفكار ، ولكن الملاحظ أن وسائل إذاعة النقد لا تزال محصورة ، فأكثر ما ينشر في الصحف والمجلات تعريف لا نقد تغلب عليه المجاملة والرغبة في ترويج الكتاب . وهناك نوع يتمثل في الطعن والقدح لأسباب شخصية أو أشعبية ... وعلى العموم نرى النقد الأدبي الصحيح من حيث التطبيق على مؤلفاتنا — يعاني ضيق مجال النشر .

ثم قال : إننا الآن في مرحلة تتطلب أمرين : الأول أن نكثر من النقل والترجمة عن الغرب ، والثاني أن يتجه النقد إلى غرس روح العلم والخلق الأدبي بجانب نقد الأدب ذاته . وبذلك نستطيع أن ننشئ أدباً أصيلا وأن نبني على أساس سليم .

وألاحظ أن نقطة نسيان المعارف كانت تحتاج إلى بيان ، وما أحسب الدكتور إلا يشير بذلك إلى الحقيقة النفسية القائلة بأن كل المعلومات تكمن في العقل الباطن الذي يهضمها ويمائل بينها ، ثم هي تسعف الإنسان في الفرصة الملائمة دون التفات الواعية الظاهرة ، ويكون ذلك أدنى إلى الأصالة من الترديد الببغاوي ، بل هو الأصالة نفسها . ولكن هل نقول من أجل هذا بنسيان كل ما نحصله ؟ وكيف إذن ندرك ما دعا إليه من معرفة المذاهب الأدبية ودقائق الفروق بينها إذا لم يظل ما نحصله منها عالقاً بالذاكرة ؟

شعر الباﻻليكا :

رأيت في « البلاغ » يوم الاثنين الماضي قطعة تحت صورة امرأة وفوق إمضاء « يوسف جبر » عنوانها « بالاليكا » وهي كلام مكتوب على هيئة النظم ، أعني أنه مقسم أجزاء

كأجزاء الشعر ، ومنه ما يأتى :

قبل شروق السحر
أسمع نجـوى وتر
عند خيـام الغجر
فعنـد ما ينفث
بلحنه الحيران
يعود وجدى ويبعث
ما كان من شجن
فى بالاليـكا

وأنا لم أذهب إلى « بالاليكا » حتى أحكم على ما توحى به من الروائع ... ولكن أليس لقائل آخر ، ما دام الباب مفتوحاً ، أن ينشر قطعة قد تكون أروع من هذه بعنوان (شرم برم) ؟!

مسرحية أوديب :

قدمت جمعية أنصار التمثيل والسينما رواية « أوديب » على مسرح الأوبرا يوم السبت الماضى ، وهى مسرحية قديمة مترجمة عن الفرنسية ، وقام بدور أوديب فيها الأستاذ جورج أبيض بك الذى قام بنفس الدور وقت أن قدمت فرقته هـذه المسرحية سنة ١٩١٢

وقد نقلت الإذاعة تمثيل الرواية إلى مستمعيها ، وكان صوت « الملقن » مسموعاً واضحاً كأصوات الممثلين ، فالمستمع يسمع كلاماً كالفحيح ثم يسمع نفس الكلام من الممثلين بصوت عال ... وكانت فرصة لحذاقة المذيع ، إذ أخذ يخبط ويخلط

كشكول الأسبوع

◻ يتداول الآن بعض كبار الأدباء فى تأليف جماعـة أدبية من أغراضها حماية حقوق الأدباء .

◻ يسرنا أن نذكر أن معالى الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا ، قد تماثل للشـفاء بعد عملية أجريت له بنجاح فى مستشفى الـكاتب ، ومعاليه الآن ينزل إلى حـديقة المستشفى لقضاء بعض الوقت فيها . والمأمول أن يكون أستاذ الجيل قد غادر المستشفى حين قراءة هذا ، موفور الصحة والعافية .

◻ فاز فى المسابقة الأدبية التى نظمتها إدارة الثقافة بوزارة المعارف خطيبان ، هما الأستاذ حسين محمود البشبيشى والآنسة عواطف عبد الله يبوى ، فاز هو ببحث أدبى عن « مسلم بن الوليد » ومنح مائة جنيه ، وفازت هى بقصة « قبور فى الطريق إلى تل أبيب » ومنحت عشرين جنيها .

ومهنا « الاقتران » بالفوز فى المسابقة بشير خير وسعادة فى « القران » المنتظر . فبالرفاء و « الإنتاج » .

◻ توالى لجنة جوائز فؤاد الأول الأدبية اجتماعاتها للنظر فى الإنتاج الأدبى بوجه عام حتى تستطيع أن تعين الفرع (كالقصة أو الشعر أو غيرهما) الذى تمنح عنه الجائزة فى هذا العام . وقد كان موضوع العام الماضى الدراسات الأدبية الإسلامية .

◻ وأخيراً فتح الله على الإذاعة فأعلنت نتيجة مباراة التمثيليات المزمنة بها ، وقد فاز كل من تمثيلتى (ولادة) للأستاذ خليل هنداوى و (على قد لحافك) للأستاذ محمد تيه عبد الكريم بجائزة من المرتبة الأولى وقدرها خمسون جنيها .

◻ سئل الأستاذ كامل كيلانى عن رأيه فى فلان الذى يدعى أن الله لم يخلق مثله فى الكتاب والشعراء . فقال : إنه يكرر دعوى سبقه إليها أديب معروف . يحكى أن أميراً جعل جائزة لأبرد حكاية ، وكادت الجائزة تستقر على صاحب الحكاية البائخة ولكن جحا انبرى يقول : أنا أحكى أبوخ من هـذه . وحكا الحكاية نفسها . فكان هو الفائز .

◻ سأل أحد الأعضاء بالجمعية التشريعية وزير المعارف فى السودان عن عدد الذين يتعلمون فى جنوب السودان ، فقال الوزير : إننى آخر من يقول بسودان شمالى وآخر جنوبى ولكن لا أستطيع الإدلاء ببيانات عن الجنوب قبل زيارته .

أوليس من مقتضى عـدم التفريق بين الشمال والجنوب أن يعرف وزير المعارف حالة التعليم فى الثانى كما يعرفها فى الأول من غير حاجة إلى زيارة إحصائية ؟

◻ قررت وزارتا التجارة والمالية إباحة تصدير الكتب المصرية إلى الخارج بعد موافقة الجهات المختصة .

◻ تبحث الجامعة العربية مسألة توحيد النقد فى البلاد العربية . وحبذا أن تعمل الإدارة الثقافية بالجامعة على توحيد أسماء شهور السنة الميلادية التى يؤدى اختلافها الحالى إلى ارتباك لا داعى له فى بلدان لغتها واحدة .

قبل أن يرتفع الستار ، فقال إن هذه المسرحية مثلت لأول مرة فى مصر سنة ١٩٢٠ ، ورأى أن يدلنا على واسع علمه فقال : إن هـذه المسرحية قام عليها المسرح فى كل أمة ! وتصور أنت مسرح أمة واحدة يقوم على رواية واحدة ... ولو أنه قال إن الرواية مثلتها المسارح فى مختلف الأمم لـكان معقولا .

وقد بدا أسلوب المسرحية وموسيقاها التى وضعها الشيخ سلامة حجازى ، بعيدين عما يستساغ فى هـذا الوقت ، مما جعلها غير مستحقة لإعادة تمثيلها الآن ، وليت الذين قدموا الرواية القديمة أتعبوا أنفسهم ببذل جهد جديد ، فقاموا بإخراج «أوديب الملك» لتوفيق الحكيم ووضع تلحين لها يناسب الذوق المصرى ، بدل هذا الاجترار الذى لا طائل وراءه ...

المسرح بين جيلين :

الجيل الأول يتمثل فى الفرق الحاضرة ، وأهمها الفرقة المصرية التى تشرف عليها وزارة الشئون الاجتماعية ، والجيل الثانى هو الجيل الجديد الذى تتطلع إليه الأنظار فى المعهد العالى لفن التمثيل التابع لوزارة المعارف .

ولا ينكر أحد أسداء الجيل القديم لفن التمثيل ، ومقدرة

أفراده التي تكونت على مر السنين من المران وتنمية المواهب ، ولكن هناك حقيقتين بارزتين ، الأولى كل هؤلاء الممثلين في العمل المسرحي ، أو بتعبير أصح انشغالهم عن المسرح بالسينما ، فهذه الفرقة المصرية تجتر الروايات القديمة التي حفظ الممثلون أدوارهم فيها فلا تكلفهم عناء في الحفظ ولا في التجارب (البروفات) وقد دعا مديرها العام الأستاذ يوسف وهبي في أول الموسم ، الأدباء إلى معاونته بالتأليف ، ولكن البرنامج الذي قدمته الفرقة طوال الموسم إلى الآن دل على رغبتها في الراحة من العناء في إنتاج جديد ، فقد قدم لها الأستاذ محمود تيمور بك مسرحية جديدة هي « اليوم خمر » كما كتب لها أيضاً الأستاذ توفيق الحكيم مسرحية « اللص » وقد مضت شهور على فراغ الأديبين الكبيرين من هاتين المسرحيتين وتقديمهما ولم يبد ما يدل على أن الفرقة ستقدمها في هذا الموسم . وتسأل الأستاذ زكي طليمات المدير الفني للفرقة عن ذلك ، فيقول : وماذا أصنع وأنا لا أجد يوسف وهبي ؟ وأين يوسف ؟ في (الاستدبو) أي أن « مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ المسرح » ليس عنده وقت للمسرح ! وهكذا نرى أن الممثلين العريقين يتخذون الفرقة المصرية « محطة » يشربون بها النبيذ المعتق ويأكلون الشطائر الممدة في (جروبي) كما يقول ديوان المحاسبة ...

الحقيقة الثانية ، وهي التي تقضي بها سنة التطور في كل شيء ، أن المسرح في حاجة إلى نوع جديد من الممثلين قد يكون أقدر على التقدم بالفن ومسايرة ما جد فيه . وهنا نصل إلى الجيل الجديد المرجو من خريجي معهد التمثيل وطلبته ، ولا شك أن هؤلاء يمتازون بأنهم يتلقون دراسات منتظمة في الآداب والفنون وثقافة العصر ، وأحرى بهم أن يكونوا — كما قال الأستاذ زكي طليمات عميد المعهد في كلمته بحفلة توزيع الجوائز على الخريجين في الأوبرا — « حجر الزاوية في حركة جديدة يكون من ورائها إصلاح وتقدم المسرح المصري يتمان على يد الممثل نفسه وبواسطة الممثل نفسه » وقد قال الأستاذ طليمات أيضاً في تلك الكلمة « لقد جرت الحكومة منذ أكثر من عشرين عاماً ، وهي تحاول الارتقاء بالمسرح ، على سياسة منح الإعانات المالية للفرق العاملة وإجراء تعديل وتغيير في أنظمتها ، ثم الإشراف عليها وتولي توجيهها توجيهاً فعلياً بوساطة اللجان وإصدار القرارات ، وقد أفاد هذا إلى الحد الذي ترون عليه « الفرقة المصرية » كما أفاد أيضاً في إبراز كيان اجتماعي للمثل . ولكن الحكومة اليوم تواصل عملها لتحقيق الارتقاء المنشود ، متخذة طريقاً أخرى ، استلهمتها ولا شك على ضوء البديهية الاجتماعية المبذولة لكل مفكر ، وهي أنه لن يفيد ولن يجدي في شيء أن نحاول إصلاح النظم القائمة بالتغيير والتعديل قبل أن نأخذ بإصلاح الفرد الذي يعمل في هذه النظم ، ويتولاها وينهض بكيانها . فالمعهد بحكم هذا مرجو أن يكون معقد الأمل في تحقيق هذا الإصلاح باعتبار أنه المصنع الذي يخرج رؤوساً جديدة تعد أحسن إعداد لاحتضان المسرح في نظامه الديمقراطي »

وقد أشرت منذ أسابيع إلى أن وزارة المعارف تعمل على إنشاء فرقة نموذجية خاصة بطلبة معهد التمثيل ، وقد كان معالي السنهوري باشا وزير المعارف السابق وافق على المبلغ المقترح لهذه الفرقة وهو ثمانية آلاف جنيه ، وقدم معاليه المشروع إلى اللجنة المالية لمجلس النواب ، وقد رفضت اللجنة الموافقة على هذا « الاعتماد » ورؤى إرجاء المشروع إلى العام القادم . وكان من حجة اللجنة المالية في هذا الرفض الاكتفاء بالفرقة المصرية على أن يضم إليها خريجو المعهد . ولكن الفرقة المقترحة شيء آخر غير الفرقة المصرية القائمة ، لأن الأولى يرجى منها أن تنهج منهجاً آخر يقوم على استغلال الحماس الفني في إحياء التمثيل المسرحي ، وهذا الحماس يخشى عليه أن يخبو وأن يثبط إذا عاشر واصطدم بالجيل القائم المتسلط ، كما يقوم المنهج المرجو على الخلاص من الاعتبارات التجارية إذ يكون الاتجاه إلى تقديم مسرحيات من الأدب الرفيع ، والفرقة المقترحة بعد كل هذا تؤمل أن تكون أساساً سليماً لبنيان جديد في المسرح المصري بعد أن دلت التجارب الماضية على فساد البنيان القائم .

وإلى معالي الأستاذ علي أيوب وزير المعارف الحالي أسوق الحديث ، راجياً أن يتم على يديه إنعاش المسرح الراقي ، وحبذا أن تحقق وزارة المعارف الغرض المنشود من الفرقة الجديدة بإمداد المعهد بالمال اللازم لإقامة الحفلات التمثيلية العامة من ميزانيتها الخاصة ، حتى يستطيع أن يبرز مجهوده ويقدم ثمراته ، إلى أن يتيسر إنشاء الفرقة المأمولة .

عباس خضر

الكتب

ديوان «من وحى الريف»

تأليف الأستاذ توفيق عوضى

بقلم الأستاذ ثروت أباظه

كثرت فى هذه الآونة مدارس الشعر وتعددت مذاهبه . فترى من الشعراء من يقصد إلى المعنى غير محتفل باللفظ أو الصياغة ، وهو فى ذلك يسير بالشعر فى طريق النثر . وترى منهم بعضاً يعنون بالصياغة والألفاظ دون التفات إلى التجديد فى المعنى؛ وعذرهم فى ذلك أن عنترة شاعر الجاهلية قد قال « هل غادر الشعراء من متردم » فإن كان عنترة منذ ألفى عام قد يئس أن يجد معنى جديداً فهل يبحثون هم عن معنى جديد بعد هذه الحقبة الطويلة من السنين التى مرت فانتهكت القديم وأخلقته ، بل وأخلقت أيضاً ما ظهر فى غضونها من معان جديدة ؟

ومن الشعراء من يقول إن الشعر الصادق إشباع للعاطفة ، والعواطف منذ كانت خالدة على الزمان لا تتغير ؛ فواجب الشاعر إزاءها أن يبين عنها فى أنصع تعبير . وهنا يختلف القوم مرة أخرى ، فمنهم من يرى أن الصياغة يجب أن تكون مشرقة فى عربية صريحة لا تيسير فيها ، ومن الشعراء من يرى وجوب التحلل من قيود الصياغة العربية ؛ ويقف البعض موقفاً وسطاً فتراه يلتزم السهولة فى تعبيره مع التزام الصياغة العربية معتقداً أن واجب الشاعر هو الوصول إلى قلب سامعيه من أقرب طريق ، وزعيم هذه المدرسة هو الشاعر العربى الأكبر إيليا أبو ماضى . وقد انضوى كل شاعر تحت مدرسته يأبى أن يجيز لأى مدرسة أخرى أن تقول الشعر معتقداً أن الشعر هو ما يكتب وما دونه كلام لا يصح أن يسمى شعراً ... ولا شك أن هذا التعصب يتساوق مع طبيعة الشاعر المتكبرة ولكن واجبه إزاءها ألا ينتقد أبداً . . . ذلك أن نقده على أية حال سوف يكون — رغم أنفه — جائراً . وواجب النقاد إزاء كل هذه المدارس أن يقفوا منها على حياد المتفرج حتى يحكموا على كل شاعر بالنسبة للمدرسة التى يؤمن بها ، وبهذا يكون الميزان سليما لا تحيز به ولا إجحاف ...

والأستاذ توفيق عوضى من الذين يؤمنون بالسهولة دون الميوعة فى الصياغة ولا يقبل أبداً أن يترجم عن إحساس لا ينبعث من صميم قلبه ؛ فهو يفهم كلمة العاطفة فهمها الصحيح ، فقد ذهب البعض إلى أن العاطفة هى الحب أو البغض بما يستتبع كلا الحالين من مشاعر وأحاسيس ، أما توفيق فقد فهمها على أنها انعكاس الصور الخارجية على نفسه الشاعرة ثم عبر عنها على أنها منبعثة من صميمه ؛ وعلى هذا تراه دائم النظر إلى ما حوله يحاذر أن تفوته واقعة فلا يسجل أثرها فى نفسه شعراً . فتراه يقول حين يستأجر الحمار والغلام بثمن واحد :

زهدنى فى النسل أنى بأمة
تساوى بها الإنسان والعير فى الأجر

وما دام أجر المرء والعير واحداً
فحمداً لمن أغنى عن النجل بالعير

ويذهب ليقضى أمسية عند صديق له فتطيب وتبعثه فى الصباح يقول مستبشراً به طروبا :

وصحت ذكاء فغنت الأكوان ألحان الصباح
فسكرت من أضوائها ونعمت بالسكر المباح
ضحكت ثغور وروده كتضاحك الغيد الملاح
المقبلات كأنهن منى تتوج بالنجاح
وذكرت لطفك فانتشيت فكنت ريحانى وراحى
يا صاحبا فى صحبة جمت أزاهير الصلاح
وعلى اقتراحك قد نزلت وقد نزلت على اقتراحى
فتمازجت أرواحنا كالراح والماء القراح

هذه الرقة التى تلمسها وتلك الانطلاقة التى تجرى بها الأبيات هى لا شك شعور صادق لا مين فيه . وإنك لتراه مع هذا يحب كما يحب الشعراء ولكنه يعبر عن شعوره فى هذه الرقة نفسها . وإنك حين تقرأ له شكواه من الحب لا تملك إلا أن تفزع معه . يقول :

كف الصدود .. كفى .. كفى عذبت قلبى بالجفا
يكفيك مما شفنى أن الصدود قد اشتفى
إن ترض لى طول السقام قضيت عمرى مدنفاً

أو توج حتفي إنني قد صرت منه على شفا
إن توف أو لا توف لن أرتد عن عهد الوفا

تلك الثورة التي يبدأ بها أبياته هي لا شك تجلي ما يعتلج بنفسه من حب وما جره عليه هذا الحب من المرض .. ثورة عارمة ولكنها رقيقة وصلت إلى قلبك دون أن يركب إليه ألفاظاً أنيقة أو صياغة متبرجة ... إنها مدرسة ... والأستاذ توفيق لا شك من أنبغ تلاميذها . سوف ترى معي ذلك حين تقرأ الديوان كله كما فعلت أنا لخرت في أي قطعة أختار وأيها أدع ثم انتهيت إلى ما نقلت إليك تاركاً لك الفرصة لتحار وتختار إذا استطعت أن تختار .

ثروت أباظة

البريد الأدبي

الرجل يخطب لا المرأة :

تنشر الصحف كل يوم أنباء الزواج ، وربط عقدته والخطبة له في عبارات يأباها فصيح اللغة ، وتنفر منها نخوة الرجولة فتقول مثلا : — (تمت خطبة فلان للآنسة فلانة !) (بحفل بهيج تمت خطبة فلان بكريمة فلان !) . (تمت خطبة فلان إلى الآنسة فلانة !) وغير ذلك مما يطول إيراد أمثاله .

ومما أثار عجبي إني قرأت يوماً في جريدة الأهرام هذا النبأ :

« في حفل عائلي تم زفاف الأستاذ ا . ح . ع المحامي وعضو مجلس بلدي ... إلى الأستاذة ف . ح المحامية فبالرفاء ... »

وهذا كله وأمثاله من الخطأ الذي لا يصح السكوت عليه ، وذلك بأنهم يجعلون الأنثى هي التي تخطب الذكر أو يزف إليها العريس ، والذكر هو الذي يُخطب أو يزف إلى العروس . ولكن اللغة تقضي بأن يكون الذكر هو الذي يخطب أو تزف إليه العروس والأنثى هي التي تُخطب وتزف إلى عريسها .

وفي الأساس : خطب الخطيب خطبة حسنة ، وخطب الخاطب خطبة . وكان يقوم الرجل في النادي في الجاهلية فيقول : خِطب وفي المصباح وخطب المرأة إلى القوم ، إذا طلب أن يتزوج منهم ، واختطبها ، والاسم الخطبة ، فهو خاطب وخطاب مبالغة وقال تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء » وفي الحديث المتفق عليه « ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله ، أو يأذن له الخاطب .

وأما القِران فيقال : قرن الشيء بالشيء ، فاقترن به ، وجعلوا من المجاز ، هي قرينة فلان لامرأته .

هذا هو حكم اللغة ، إلا إذا كانت الأمور قد انقلبت والمدنية قد تحكمت في اللغة كما تحكمت في غيرها فاستنوق الجمل واستتيست الشاة ! !

محمود أبو ريه

حول الأدب الشعبي في الكويت :

بعث إليّ أحد الأصدقاء يستنكر تسميتي للخليج الفارسي (بالخليج العربي — الفارسي سابقاً) في مقالي عن (الأدب الشعبي في الكويت) الذي نشر في الرسالة الغراء (العدد ٨١٣) مدلياً لي بأن جميع الكتب التي ذكر فيها اسم هذا الخليج دعى فيها بالفارسي وليس بالعربي كما أنه فارسي الصبغة ... الخ

وأحب أن أنبه هذا الصديق وأمثاله إلى أن هذا الخليج الذي يحده من الشرق بلاد فارس ، ومن الغرب الكويت والبحرين والأحساء ، ومن الشمال البصرة فالعراق ، ومن الجنوب عمان والربع الخالي وبلاد الغرب عربي الصبغة تماماً ، وأن تسميته بالفارسي تسمية عتيقة بالية ويكفي أن تعلم أن السواحل العربية التي تطل على هذا الخليج أطول من السواحل الفارسية التي تطل عليه ، كما لا ننسى أن تلك السواحل الفارسية نفسها التي تطل عليه تدعى (عربستان) فسواحله عربية ومياهه عربية خالصة وإن الأسطول التجاري العربي الكويتي الذي على طوله وعرضه ليدلك الدلالة الواضحة على عروبته كما أن الكويتيين والبحرينيين من أعمالهم العامة صيد أو قطف اللؤلؤ من مياهه . والعرب الذين يقطنون السواحل العربية منه كالكويت مثلاً قد اصطلحوا على تسميته بالخليج العربي ويعتزون بذلك ، فلئن ذكرته الكتب العتيقة فارسياً فقد آن للجديد منها أن يطلق عليه هذا الاسم الحقيق الطارف .

أحمد طه السنوسي

أسف واعتذار :

في تعقيبات العدد الماضي من « الرسالة » عند الكلام عن مسرحية « سليمان الحكيم » سقطت إحدى العبارات فاختل معها المعنى الذي كنت أقصد إليه . ولعل القراء قد فطنوا إلى تلك الفجوة التي فصلت بين شطري التعبير حيث وقفوا على هذه الكلمات : « هناك جواب واحد لهذا السؤال ، وهو أن الأستاذ الحكيم ينصب عليه الطابع الفكري في كثير من قصصه ومسرحياته . إنه يجري وراء المشكلات النفسية وهو في ذلك يخضع للجو الذي تسيطر عليه شخصيات أبطاله ، هناك حيث تجد الصراع بين ذهن وذهن لا بين عاطفة وعاطفة » . وصحتها : « هناك جواب واحد لهذا السؤال ، وهو أن الأستاذ الحكيم يغلب عليه الطابع الفكري في كثير من قصصه ومسرحياته . إنه يجري وراء المشكلات الفكرية أكثر مما يجري وراء المشكلات النفسية وهو في ذلك يخضع للجو الذي تسيطر عليه شخصيات أبطاله .. الخ »

لهذا أسجل أسفي ، أما الاعتذار فأتقدم به إلى القراء حيث ضاق النطاق عن تناول قصيدة الشاعر إيليا أبي ماضي بالعرض والتحليل كما وعدت .. فإلى العدد القادم إن شاء الله .

أنور المعداوي

بيت قلق :

في العدد (٨١٦) من الرسالة الغراء اطلعت على قصيدة للشاعر الأديب سعد دعبس بعنوان (في القاع يا رب) مطلعها :

حطمي الزورق يا ريح فقد طال ظلامي
وجرى الشك ورائي ومشى الوهم أمامي

وهي من الرمل المربع (فاعلاتن أربع مرات) . ومنها هذا البيت القلق بالزيادة :

ربما ينعم بالفجر الأفاعي وأنا رهن الظلام

ولا أظن الخطأ من التطبيع فهو بالزيادة لا النقص ، وتمام المعنى بالزيادة الزائدة !

وبعد : فما — بكلمتي — قصدت التصويب ، بل التعقيب بالشكر للشاعر الأديب الذي قام بهدي قصيدته إلى (روح الشاعر البائس « عبد الحميد الديب ») وفاء وذكرى ، في زمان قل فيه الوفاء والوفيون ، ونضب الذكرى من ألسن الذاكرين .

رحم الله الديب (١) ، وجزى الله الأديب .

(الزيتون) عدنان

مآخذ أربع :

في عدد الرسالة الغراء رقم (٨١٣) قصيدة للشاعر الملهم زهير ميرزا بعنوان « شهرزاد » وهي قصيدة منورة مائسة ، وقد ازدانت كالعروس الحسناء برواء بديع لولا هذه المغامز :

قال الشاعر :

١ — « كأسك الفن ومغناك أغاريد العصور »

والمغنى مقصورا واحد المغاني وهي المواضع التي كان بها أهلوها . وأغنيت عنك « مغنى » فلان و « مغناة » بضم الميم وفتحها فيهما : أي أجزأت عنك مُجزأه .

وما أظن الشاعر قصد كلا المعنيين إذ لا يكون المنزل أغاريد العصور بله أن يجزأ عنه مجزأه . وأظن الشاعر حسب « المغنى » من الغناء كما يقول بيرم التونسي على لسان أم كلثوم .

المغنى حيــاة الروح يسمعها الحبيب تشـــفيه

ولا وجه له

٢ — « وندامك عشيق فاتر اللحظ الكسير »

والندامى جمع ندمان . ذكر الشاعر أولئك الندامى ولم يذكر منهم سوى ذلك العشيق ، وكان الصواب أن يقول : ونديمك أو ندمانك عشيق فاتر اللحظ الكسير أن يأتي بالمفرد دون الجمع

٣ — « ورواء الدهر فاستلقاه خفاق وثارا »

واستلقى : على قفاه ولا معنى له هنا ، والصواب أن يقول : وتلقّاه خفاق وثارا ، أي استقبله . ومنه قوله تعالى « إذ تلقونه بألسنتكم » أي يأخذ بعض عن بعض .

٤ — « يرقبك السمار حيرى والمساء »

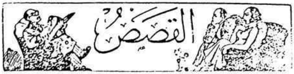
والصواب أن يقول : يرقبك السمار حيارى بالضم والفتح جمع حيران . أما حيرى فهي المفرد المؤنث .

وكنا نود أن نضرب صفحاً ونسبل ستراً على هذه المآخذ اللغوية لولا أن مكانة الشاعر الذي أتحف قراء « الأديب » بروائعه أعلى من هذه الهنات . وللشاعر شكري ؛ إذ أن هذه النميزة لا تحط من قيمة هذه « الشهرزادية الرنان » .

يافا — فلسطين : عمان سامي حسين مبيّض

---

(١) ومن قوله :
(جوارك يا ربي لمثلي رحمة تقيني لظى النيران لا جنة الخلد !)



قصة من الحياة :

من الأعمــــاق (*)

« مهداة إلى الأستاذ أنور المعداوى »

للأستاذ كامل محمود حبيب

مضى الليل إلا أقلّه و « إلهام » تضطرب فى فراشها لا تستقر، تتلمس الكرى فلا تجده وتنشد الراحة فلا تنالها ، وقد اطمأنت إلى الظلام والسكون يعصرها الهم ويضنيها الأسى ، تنغمر فى خواطرها والساعات تنطوى . و « إلهام » فتاة فى الثامنة عشرة من سنى حياتها فهى فى شبابها الأول تنبض بالحياة وتتفتح عن أمل باسم وتتألق عن جمال رائع فتان ، تشع نوراً وسعادة وتتلألأ بهاء وضياء . لم تذق الحزن ولا عرفت معنى الكآبة ، فهى بين أبيها وأمها وأختها الصغرى فى بهجة ما تنقطع أسبابها ، فما لها — الآن — تجلس وحدها فى ظلام الحجرة وظلام الأخيلة ؟ وإن الشيطان ليوسوس لها بين حين وحين فلا ترى الحياة إلا عوداً من ثقاب تشعله فى ثيابها ، وإلا حبلاً تلفه حول عنقها وتتدلى به فيقعقع عظام رقبتها ، وإلا نافذة تنفتح لتقذف بنفسها منها . ولكنه ما زال فيها بقية من دين وصبابة من أمل .

وتسرب نور الصباح إلى حجرة إلهام يفزعها عن فراشها وعن خواطرها فى وقت معاً ، واندفعت صوب الشباك تريد أن تسرّى عن نفسها بعض ما أمضّها فما وجدت فى نسمات الصبح الندية ما يرفه عنها كربة قلبها ، ولا فى النور الجميل المتدفق من لدن المشرق ما يمسح على همّ روحها .

يا عجبا ! لقد كانت تجد فى بسمة الصبح الجمال والحياة والنشاط جميعاً فما بالها الآن تفر منها فى ضيق وملل .

***

وفى عصر يوم من أيام الربيع — منذ أربع سنوات — والرياح تهب رخية لينة توقع لحن السعادة والنور على قيثارة الربيع الهادىء الجميل ، والطائر الغريد يقب على أفنان الشجر وهو يشدو بأنغام النشوة والمرح ، والأزاهير تنفح عبيرها فى خيلاء ، وتتمايل سكرى وقد هزتها اللذة واستخفها الطرب ، والشمس تنحدر إلى خدرها رويداً رويداً لتذر هذا العالم المضطرب ينام فى هدوء وراحة وأشعتها تتماوت وتتماوج ، تودع بعضها بعضاً قبل أن تتلاشى لدى المغرب .

حينذاك اندفعت إلهام إلى الحديقة فى ثوبها الحريرى الأبيض الرفاف وهى فى عطرها المتأرج وشبابها الفياض تنفث الحياة فى هذه الناحية وما فيها سوى البستانى العجوز يفحص الأرض بفأسه الصغيرة ، اندفعت إلى الحديقة تحنو على أزهارها وتحبو شجيراتها ببعض عطفها وتتنقل هنا وهناك ، فهى زهرة نضيرة بين أزاهير ، ولكن فيها هى الحياة الوثابة وفيها الجمال الآسر وفيها الخفة والفتنة وفيها السعادة والبشرى . لقد تفتحت الأزاهير وتكاد أوراقها أن تذبل ، أما هى فتوشك أن تتفتح عن أكمامها فتبدو فى بهائها وروعتها ملء العين وسحر القلب وإن ربيع الأزاهير لينطوى فى غير بطء ولا تلبث ، أما ربيعها هى فيقبل فى هدوء وأناة ، وغمر الحديقة نور الفتاة فتراءت كأنما ترقص طرباً وحبوراً .

ودخل « عادل » إلى الحديقة — على حين غفلة — فألفى الفتاة أمامه وجهاً لوجه فرأى فيها معانى قلبه الشاب ولكنه ما زال فى الجامعة وما تزال هى طفلة . وسألها عن أبيها وعن أمها فما وجدهما . لقد خرج معاً ليقضيا شطراً من الليل خارج الدار . وهمّ الفتى أن يرجع غير أن الفتاة طلبت إليه أن يتلبث قليلاً لتعرض أمامه أزهارها وشجيراتها .

وتحدثت الفتاة فى طلاقة واستمع الفتى . وانطلقت وانطلق هو إلى جانبها يحدثها وتحدثه هى حديث الزهر والشجر والربيع والأصيل والمطر .. ورقت كلمات الفتى وتكسرت نبراته ... ثم خرج ووقفت هى تنظر إليه فى صمت ، وأحست الفتاة بالوحدة

(*) يا قارئى العزيز : هذه مشكلة من الحياة لم تتم فصولها للآن . وأنا أنتظر رأى عقلك فماذا عسى أن تجىء ؟ لعل رأيك ينير السبيل أمامى !

حين رأت عادلاً يتوارى خلف سور الحديقة فأرادت أن تندفع في إثره لترده إليها ، ولكن ..

وعادل فتى سمهري القوام قوى العضل وضاح الجبين يتألق وجهه حياة ونشاطاً ، وتنبعث من عينيه أشعة نفاذة قوية علامة الذكاء والفطنة ، وتضطرب في محجريه آثار عبرات مكفوفة علامة الإنسانية والرقة ، وتتسم حركاته بالاتزان والرزانة علامة الرجولة والقوة ، وهو — إذ ذاك — طالب في السنة النهائية من كلية الآداب واسع الأفق حلو الحديث طلى الأسلوب رقيق الحاشية ، طيب القلب ، عالى الهمة ، يعتز بعلمه وأدبه ، حريص على كبريائه وكرامته .

لقد دأب عادل — منذ أن التحق بكلية الآداب — على أن يزور « فكرى بك » — والد إلهام — كل أسبوع فهو صديق أبيه وهو عونه هنا في القاهرة . وإن عادلا ليفزع إلى فكرى بك يستعينه على أمره ويستنير برأيه ويطمئن إلى نصيحته ، وهو فتى ريفى يشفق على نفسه أن يجرفه تيار المدنية ويتهيب أن يعصف به لهو الحياة ، فهو يرى في (البك) الأب والقائد والمثل الأعلى ، وفكرى بك يرى في عادل الابن والصاحب والصديق . وأنس واحد إلى واحد واطمأن إليه ، فعادل ما يبرح يزور (البك) و (البك) ما يبرح يفتقد عادلا ويطلبه فيلح في الطلب ، يقيمه على بعض شأنه ويفتح له بابه وقلبه وذراعيه .

لطالما جاء عادل إلى الدار ، ولطالما تحدث إلى إلهام في عطف ، ولطالما جلس إليها يعينها على الدرس ولطالما قص لها الأقاصيص وأهدى إليها الكتب ولكنها لم تحس بما يدفعها إليه إلا في هذه المرة . أفكان ذلك من أثر شعورها بأنه أزال عنها الوحدة في الحديقة في عصر يوم من أيام الربيع ؟ أم هو شعور بالعطف عليه حين لم يجد أباها فأراد أن يرتد في خذلان ؟ أم هو التقدير والإجلال لمن وجدت فيه الحجى والصون ؟ لا ريب فهى قد أحست في نفسها شعوراً غامضاً لا تعرف مأتاه ، ولا تدرك كنهه ولكنه يدفع قلبها صوب هذا الفتى .

وبدأت الفتاة تترقب موعد زيارة عادل في شغف وتنتظر مقدمه في شوق وتتأهب للقياه في زينة . ولكنها في سنها البكرة ما تزال تجهل ما يضطرب في نفسها .

وانطوت الأيام والفتاة تأنس إلى فتاها ، تهفو إلى مجلسه وترنو إلى حديثه وقلبها يزداد تعلقاً به وأخيلتها تحوم حواليه فهى تخلق الأسباب لتسأله فيجيب وتتصنع الجهل ليشرح لها درساً أو يحل لها مسألة ، والفتى مطمئن إلى ما تفعل راض بما يجد ، يرى فيه راحة قلبه وشفاء نفسه . غير أن الفتاة لم تستطع أن تدرك كنه ما تحس . هذه العاطفة الشبوبة تبعث فيها الحيرة والاضطراب وهى تكتمها فلا تتحدث بها إلى أمها ولا تبوح بها إلى أختها الصغيرة . وكيف تفعل وفى رأيها أن فتاها لا يبادلها عطفاً بعطف ولا إخلاصاً بإخلاص ؛ وهى إن فعلت لا تأمن أمها أن تغلظ لها في الحديث أو تهكم عليها بكلمات قاسية عنيفة . وأختها طفلة لا تفهم لغة القلب ولا تعى حديث الهوى ، وهى لا تستطيع أن تحدث صاحبها بذات نفسها خشية أن يكون في شغل عنها فيحتقر خلجات روحها ويمتهن نبضات قلبها . وألقت بها هذه الخواطر في تيهاء مقفرة ثم قنعت بأن تستمتع برؤيته بين الحين والحين ، وأن تسعد بحديثه بين الفينة والفينة ، تروى ظمأ نفسها وتنقع غلة قلبها ، والأيام تنطوى ...

أما عادل فقد أحس بالهوى الجياش يتدفق إلى قلبه في غير هوادة ولا لين منذ أن رآها تثب بين النبت والزهر ترفل في ثوبها الحريرى المفهاف تتوثب نشاطاً وحياة وتتألق بهجة ونوراً ، وشغف بها حين رآها تستكمل — على الأيام — أنوثتها وجمالها ، فهو يتودد إليها في رفق ويسعى إلى رضاها في صمت ؛ والحياء يمنعه عن أن يكشف لها عن دخيلة قلبه خشية أن تنفر منه فلا يراها بعدُ وأن تزدرى عاطفته فتسخر منه فتتحطم كبرياؤه وتتصدع كرامته .

وحال الخجل بينه وبين أن يحدث أباها بما يكن للفتاة من حب خيفة أن يثور به فيضع بينهما سداً لا يستطيع واحد أن يظاهره وإن جهد .

وليست هذه بالسبيل التى يسلكها إلى غايته ، فهناك في القرية أبوه وهو رجل ذو عقل وتجربة ، يرى الرأى ويوطّىء للأمر فينفذ إليه من منافذ يعجز عنها عادل نفسه .

وألقت به هذه الخواطر في تيهاء مقفرة ، ثم قنع بأن يستمتع برؤية فتاته بين الحين والحين وأن يسعد بحديثها بين الفينة والفينة

يروى ظمأ نفسه ويتقع غلة قلبه ، والأيام تنطوى .

ورأى الأب بعيني تجاربه أن الفتى يحنو على الفتاة وأن فتاته تعطف على الفتى ، وخشى أن تمتد يد إلى يد أو يهفو صـدر نحو صدر أو تقترب شفة من شفة ، ثم ساورته الريبة واستولى عليه الشك . فاذا يفعل ؟ وهو لا يريد أن يغلق بابه دون الفتى وهو صديق أبيه ، ولا أن يدفعه عن داره وهو يستعينه على بعض شأنه ، ولا أن ينشر ظنونه أمام الفتى فيظن هو ويظن أبوه أنه يعرض ابنته كما تعرض السلعة البائرة فى السوق الراكدة يبتغى من وراء ذلك أمراً . وغلكته الحيرة

وجاء عادل — كدأبه — يزور (سعادة البك) ، ورأته إلهام وهو يدلف إلى حجرة المكتب فانطلقت إلى هناك كادحة ، ولكن أباها طردها فى غلظة ، ونهاها عن أن تدخل حجرة فيها « الأستاذ عادل » إلا أن يؤذن لها .

وذهل الفتى حين بدا له أن عين الشيخ يقظة مترقبة ، وعجب ألا ينطلى على (البك) ما يتصنعه من رزانة وما يتكلفه من هدوء : الآن وقع ما كان يخشاه وضرب بينه وبينها بحجاب كثيف ما يستطيع واحد أن يظهره وإن جهد . وأطرق الفتى وقد تجهم وجهه وتقبضت أساريره ، ثم خرج من لدن الرجل يهيم على وجهه وقلبه يبكى فى حرقة وألم ونفسه تتغيظ فى أسى ولوعة وثارت كبرياؤه تخاصم الدار وروحه ترف حوالها .

يا لقلبي حين تغشاه غاشية من مصائب الحياة ونكباتها فلا يجد عنها مصرفاً ! الآن ذاق قلب الفتى مرارة الحسرة والكمد حين تلفت فإذا هو وحيد على حيد الطريق ، أما الفتاة . . . !

* * *

ومضت سنة كاملة والفتى يدافع نفسه عن الدار التى يهفو إليها قلبه . وحين خيل إليه أنه ثأر لكبريائه واقتص لكرامته أحس رغبة ملحة تجذبه إلى دار فكرى بك — مرة ثانية — ليرى هناك روح قلبه ونور عينيه وجمال حياته .

وعجب عادل أن رأى الخادم يتقدمه ليفسح أمامه الطريق وليقوده إلى حجرة الجلوس دون حجرة المكتب ! ماذا كان ؟ لا ريب فقد أصبح غريباً عن هذه الدار فهو يرى الأستار تسدل فى وجهه ، والأبواب تغلق دونه ، ولا يجد السبيل إلا إلى حجرة الجلوس ، ولا يلقى إلا (سعادة البك) و (البك) يلقاه كما يلقى رجلاً غريباً عنه ويحدثه حديثاً فيه التكلف والتصنع ويجلس إليه فى فتور وملل . وأحس بأن فى الدار حركة لم يتألفها وأن شيئاً يتوارى خلف الأستار المسدلة . ما ذا وراء ؟ وهو قد كان — منذ شهور — يدخل إلى الدار فى غير إذن فتتفتح الأبواب وترتفع الأستار ويهفو نحوه كل من فى الدار فى غير تحرج ولا حذر . . .

وذهب عادل يتحسس من الأمر وإنه لذو حيلة ورأى فتنامى إليه أن فتاته قد سُميت على جلال بن عزت بك وهو ضابط فى الجيش وهو من أسرة ذات جاه وثراء ، وإن الدار تموج منذ أيام بمن يهيئون لليوم السعيد يوم أن تزف إلهام إلى جلال

ورجع الفتى إلى داره يلفه الهم ويطويه الأسى وفى نفسه ثورة وبركان هائج لا يهدأ ، فهو يذهب ويجيء ويضطرب فى الحجرة مثلما اضطرب وحش كاسر فى قفص . آه ، يا قيود الإنسانية لو قُيّض للفتى أن يقذف بك عن عاتقه لزأر زئير سبع غاظته الحياة وعضته الأيام ! ولكنك أرغمته على أن يكتم الحيوانية الصريحة فيه ، فهو يضم جوانحه على أتراحه وقلبه يكاد ينشق من فرط الشجن . وحين آده الجهد والإرهاق جلس إلى نفسه يحدثها : « ماذا كان فى غيابى ؟ لعلها وجدت فقدى زماناً ثم تسلت ، ولعل أمها قد طلبتنى ساعة ثم نسيت ، ولعل (البك) انتظرنى حيناً ثم انصرف ! يالطيشى حين خاصمت هذه الدار وفيها روح قلبي ، ونور عيني ، وجمال حياتي ! هذا ذنبي أحمله وأعانى من وخزاته ما ينوء به ذو الجلد والصبر . ولكن هل أستسلم وأخضع ؟ كلا ! غداً أجد السبيل إليها وأحدثها حديث قلبي ، ثم أرى ما ذا تفعل وما ذا تقول . ولكن كيف أفعل وهى قد سميت على رجل غيرى وستصبح — بعد أيام — زوجة وربة دار . إن قلبي لا يستطيع الصبر ولا السلوان ، فغداً أراها وأتحدث إليها » . وانطوى الليل كله فما غمضت عينه ولا هدأت ثائرته ، وفى الصباح انطلق إلى هناك يلقى الفتاة !

وجلس إليها فى غير رقبة ولا حذر يحدثها ويعتب عليها وينشر أمامها مكنون قلبه وهى تقول له : « أترى يوم أن تلاقينا فى الحديقة منذ سنوات أربع ، لقد أحسست بقلبي يندفع نحوك ، وشعرت روحى تصفق حواليك ، ووجدت — منذ تلك الساعة — لذة الحياة وسعادة القلب ، وخشيت أن أنفض نفسي أمامك ،

وأنت فى شغل عنى ، فلا أجد منك إلا الاحتقار والامتهان ، وأنا أرسف فى أغلال التقاليد وقيود البيت ، وما كان لى – وأنا فتاة فىّ الخفر والحياء – أن أتحدث حديث الحب إلى فتى فيه الشباب ، لم يسع هو إلىّ ، ولم يكشف لى عن دوافع قلبه ولا خلجات ضميره » ! وأطرق الفتى ساعة ثم قال : « وما ذا وراء ، وأنا أحبك ملء روحى ، وأراك نور الحياة وشباب القلب ؟ » قالت : « ... وحين وافقت على رأى أبى كنت قد خشيت أن تكون قد طردتنى من نفسك لأنك نأيت عنى ، وخفت أن أطرد خطيبى فأتخلف عن الركب ، وإن شبح ابنة عمى ليضطرب فى ناظرى كلما ذكرت الخطبة والزواج ، فهى قد تأبت حيناً على الزوج أنفة منها وصلفاً . وهى الآن قد أشرفت على الأربعين ولما تجده ، لقد فاتها الركب ، وتخلفت عن القافلة » . فقال : « فما ذا ترين وأنا لا أجد الصبر عنك ؟ إن عقلى قد ضل فهو لا يهتدى إلى رأى » قالت : « سنرى ، وإن فى الوقت فسحة » .

وخرج الفتى ليذر فتاته وحدها فى مضطرب من الأفكار يلتهمها الهم ويفريها الأسى ، وهى جالسة فى ظلام الحجرة وظلام الأخيلة ، وإن الشيطان ليوسوس لها فلا ترى الحياة إلا عوداً من ثقاب تشعله فى ثيابها ، وإلا حبلا تلفه فوق عنقها ، وإلا نافذة مفتوحة تقذف بنفسها منها . وأسباب الحزن نفسها ، وزعزعتها الحيرة ، فبدت فى عينى أمها ذاوية ذابلة ، وهى تلقى خطيبها فى فتور ، وتحدثه فى ملل ، وهى تغدو وتروح فى تراخ ، وتقضى حاجاتها فى كسل . ونظرت إليها أمها بعينى المرأة والأم معاً ، فتبين لها أن قلبها قد تحول ناحية أخرى ، فراحت تتسلل إلى قلبها فى عطف حيناً ، وفى مكر حيناً آخر ، فما تلبث الفتاة أن كشفت لها عن خطرات قلبها ...

وراحت الأم تنبه جلالاً إلى أمر ذى خطر ، وتوحى إلى ابنها الصغيرة أن تسر إلى عادل أن يقطع صلته بهذا البيت فلا يزوره أبداً ، فهو يخلق بزياراته مشكلة يعضل عليهم حلها .

ووعى الشابان كل ما سمعا . أما عادل فانطلق يتلمس دواء لقلبه ، وأما جلال فراح إلى غريمه يحدثه : « ... وأنت تعلم – يا صاحبى – أنها سميت علىّ ، وأنى أحبها ، وأننى رجل حرب لا أومن إلا بأحد أمرين : الفوز فى المعركة ، أو الموت ! فأنت حين تضحى تحفظ علىّ حياتى وسعادتى ... » فأجابه عادل فى هدوء : « وأنت حين تفوز فى المعركة تقتلها وتقتلنى معها » ! قال جلال : « ولكننى قد أعددت كل شىء ، وتستطيع أنت أن توهمها بأنك لا تطيق سحيا ، أو أنك تخشى انتقامى » . قال : « وهذا لا أرضاه ، وكيف أرضى أن تنهار كبريائى فى نظر الفتاة ، ولا تنس أن رجلا ثالثاً سيعيش دائماً بينكما . لقد سبقتك إلى قلبها ، وإن كنت أنت سبقتنى إلى خطبتها » . قال جلال : « ولكننى أفزع إلى كرمك ورجولتك » . فأجابه عادل : « هذا شىء لا أملكه ، فنبضات قلبى وقلبها تتفقان معاً ، فكيف أستطيع ؟ » فقال جلال فى رجاء : « أرجو أن تفكر فى الأمر ملياً قبل أن تهدم بيتاً توشك عمده أن تقام على أساس » .

وافترق الشابان ابتغاء أن يقلب كل واحد منهما الرأى ، واتفقا على أن يضحي واحد فى سبيل الآخر !

وظل الشابان فى تردد وحيرة ، والفتاة فى الدار لا تجد الخيرة من أمرها ، وهى قد وافقت منذ حين على أن تتزوج من جلال .

فمن عسى أن يضحى يا قارئى العزيز ؟

كامل محمود حبيب

مطبعة الرسالة